وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصار مالم يكن يخطر لاحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحى معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ما عليه الناس من الاحزان والمحن التى لا تحتمل وأحسنهم فى ذلك عمرو بن عبد الملك العترى الوراق فمما قاله

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكونى زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قربهم زينا من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوما ما ذكرتهم الا تحدر ماء العين من عينى
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم والدهر يصدع مابين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد

بكيت دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى واصباحا وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب ووالدها يفر الى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات عليهن القلائد فى الحلوق

ينادين الشفيق ولا شفيق　　وقد فقد الشفيق من الشقيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا　　متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى　　بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا　　فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه　　وقد هرب الصديق بلاصديق
ومهما أنس من شىء تولى　　فانى ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان فى حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذى أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم. وللخزيمى قصيدة طويلة تبلغ ١٣٥ بيتا يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التى حلت استوفاها الطبرى فى الجزء العاشر من تاريخه صحيفة ١٧٦ وما بعدها من طبع مصر يقول فيها

يا بؤس بغداد دار مملكة　　دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها　　لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالحرب التى أصبحت تساورها

ثم قال: رق بها الدين واستخف بذى الفضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده　　بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم　　وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العترى:

الناس فى الهدم وفى الانتقال　　قد عرض الناس بقيل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم　　عينك تكفيك مكان السؤال

قد كان للرحمن تكبيرهم فاليوم تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك الى جمعهم وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق فى بغداد الا امرؤ حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمى عن حماها ولا خال له يحمى ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد مطرده فى كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على كفيه للشقوة قتل الرجال
ان صار ذا الامر الى واحد صار الى القتل على كل حال
ما بالنا نقتل من أجلهم سبحانك اللهم ياذا الجلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استنفد الامين كل وسائل الدفاع وأيقن بالعطب ان هو استمر على الممانعة فاستشار من بقى من قواده فأشار عليه بعضهم أن يطلب لنفسه الامان من هرثمة بن أعين ويسلم له فرضى وكتب الى هرثمة بذلك فاجابه اليه ولما علم طاهر بذلك أبى الا أن يكون خروجه اليه اذا شاء ولما لم يكن الأمين ميالا الى الخروج الى طاهر اتفق القواد أن يخرج ببدنه الى هرثمة وأن يدفع الى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر أنهم يمكرون به فاستعد للأمر وكمن حول القصر كمناء بالسلاح فلما خرج الأمين كانت حراقة هرثمة تنتظره فركبها ولم تسر بهم الا قليلا حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهام والحجارة فانكفأت الحراقة وغرق هرثمة ومحمد الأمين فاما هرثمة فادركه أصحابه وأما محمد فسبح فى الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فاسروه فأمرهم طاهر بقتله فقتل ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ وفى الصباح كتب طاهر الى المأمون يخبره بما تم و بالاسباب التى جعلته يأمر بقتل الأمين.

ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ الناس وكان دخوله اليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة و رغبهم فى التمسك بحبل الطاعة وانصرف الى معسكره

بذلك انتهى الفصل الاول من هذه الحادثة الشنيعة التى فرقت بين الأمة وأحدثت هذه الثورة الهائلة

أما سببها و تبعتها فعائدان الى هارون الرشيد أولا ثم الى الفضل بن الربيع ثانيا — أما الرشيد فانه غلط فى فعله غلطات الأولى أنه ولى عهده أولا محمدا الأمين والمأمون أسن منه ولم يكن ما يزيد الأمين الا أنه ابن زبيدة وليس هذا من الأسباب المرجحة فى نظر العقلاء وانما هو مرجح فى نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى — الثانية أنه لما أحس بهذه الغلطة أراد مداواتها ففعل ما يزيدها شرا بتولية المأمون العهد بعد الأمين ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال بأمر خراسان والرى عن أخيه الأمين ومن المعلوم أنه كلما كثرت الامتيازات كثرت المشاكل وأسباب الفساد والأمين والمأمون وان كانا أخوين يتنافسان فالأول يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام والثانى يميل أن يتمتع بامتيازاته تماما ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين الأخوين صفاء متى حانت وفاة الرشيد وقد أدرك المفكرون ذلك فى حياته — الثالثة أنه لم يقتصر عليهما فى ولاية العهد فأضاف اليهما أخا ثالثا وأعطاه من الامتيازات فى الجزيرة وأرمينية ما أعطى المأمون فى خراسان فجرأ ذلك الأمين على نقض العهد لانه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين منزوعا منه السلطان فى أعظم بقاع الاسلام وأكثرها

أعوانا وجندا — الرابعة أنه اغتر بالفضل بن الربيع الذى جرأه على افساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين له خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى فى عهد الأمين فانه هو الذى اجتهد فى اغرائه بأخيه لأنه ظن أن المأمون اذا تولى أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيد وسيره بالجنود التى كانت مع الرشيد الى بغداد مع أن الرشيد عهد بها الى المأمون فما زال يحتال فى الافساد حتى أوقع هذه الاضطرابات . ولما اشتد الأمر على الأمين لم يفده فائدة بل اختفى وكان كالشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين

يضاف الى ذلك كله ما فى طباع الخلفاء من ميلهم الى أن يكون بعدهم فى الخلافة أبناؤهم فهم يحتالون بكل ما فى وسعهم الى اخراج اخوتهم أو بنى أعمامهم من العهد ان كان ولم نر خليفة له ابن فلم يسع له ذلك السعى ولم نجد عهدا أو عقدا منع من ذلك حتى كان هذا مجرئا للخلفاء على عدم الاعتناء بالعهود المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الحيل ما يبيح لهم عدم التمسك بها والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادى وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن المنية غلبت مع أن الرشيد لم يكن له شىء من الامتياز أعطاه اياه المهدى أبوه نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة .

صفات الأمين

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقتله الى القدح فيه وتعديد مثالبه التى أودت به وهذه سنة قديمة أن الناس مع من يساعده القدر فهم

أبدا مع القاهر على المقهور لان للقوة سلطانا على النفوس لا يغالب وهذا نموذج مما قيل فى هجاء الأمين

لم نبكيك لماذا للطرب ... يا أبا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس فى أوقاتها ... حرصا منك على ماء العنب
وشنيف أنا لا أبكى له ... وعلى كوثر لا أخشى العطب
لم تكن تعرف ماحد الرضا ... لا ولا تعرف ماحد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم ... تعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكى عليه لا بكت ... عين من أبكاك الا للعجب
لم نبكيك لما عرضتنا ... للمجانيق وطورا للسلب
ولقوم صيرونا أعبدا ... لهم يبدو على الرأس الذنب
فى عذاب وحصار مجهد ... سد الطرق فلا وجه طلب
زعموا أنك حى حاشر ... كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله فى وحدة ... من جميع ذاهب حيث ذهب
أوجب الله علينا قتله ... فاذا ما أوجب الامر وجب
كان والله علينا فتنة ... غضب الله عليه وكتب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله

أول ما عرف من عمل الأمين ارادته الغدر بأخيه والرمى بعهد الرشيد وراء ظهره فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقا غير ناظر الى ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة فى نظر الجمهور اذ ليس أعظم فى نظر المسلم من انتهاك

حرمة البيت المقدس ولا انتهاك أعظم من افساد أمر دبر فيه وجعل البيت الحرام حارسا عليه على أن الغدر فى ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الأمة الأدبية فلا غرابة أن رأينا جمهور الأمة فى صف أخيه

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشىء من الحزم ولا بعد النظر بل كان أول قائد ولاه حرب أهل خراسان أعدى عدولهم من جربوه فوجدوه ظالما عاتيا يستحل أموالهم ويضرب أبشارهم وهو على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان فى عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جدا فى محاربته والضربة الأولى مما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد فى حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل

ومع هذا الغلط كان الأمين مشتغلا عن تدبير أمره بما كان فيه من اللهو والعبث شتان بين تدبيره وتدبير أخيه فبينما كان هو على هذه الطريق كان أخوه المأمون بمرو يجمع الى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم كما يجلسون ويتكلم معهم فى الفقه والأدب والحديث حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى ما لهذا من التأثير فى قلوب الجمهور

يقال ان محمدا لما تولى وجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه وأجرى لهم الارزاق ونافس فى ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل اليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر

المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار ونبارى والهوب وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما فقال أبو نواس يمدحه

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا ... سار في الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يهوى ... أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ... ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو ... رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجنا ... حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما اسـ ... ـتعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ... ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه ... هاشمى موفق للصواب

وجميع ماوقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره أنه كان يميل جدا الى اللهو والغناء والشرب حتى أقعده ذلك عن حسن التدبير لاموره هذا مع أنه ممتاز على بنى العباس قاطبة بأنه هاشمى الأبوين ولكن ليس بحسن الانساب تعلو الرجال وانما علوها بحسن الفعال

٧ - المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى . وأمه أم ولد اسمها مراجل

ولد سنة ١٧٠ فى اليوم الذى ولى فيه أبوه الخلافة . وولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الأمين وضمه الى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها الى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التى عقدها استقلالا يكاد يكون تاما . ولما توفى أبوه لم يف له أخوه بعهده بل أراد أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان من وراء ذلك الحروب الفظيعة التى قصصنا خبرها وهى التى انتهت بقتل الأمين فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣)

بويع المأمون بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ واستمر خليفة الى أن توفى غازيا بطرسوس فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام . أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته الى منتصف صفر سنة ٢٠٤ وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقى ببغداد حاضرة الخلافة العباسية

وكان يعاصره فى بلاد الاندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بنى أمية (١٨٠ - ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨)

ويعاصره فى بلاد المغرب الاقصى ادريس بن ادريس بن عبد الله سنة

(١٨٨ - ٢١٣) ثم ابنه محمد بن ادريس (٢١٣ - ٢٢١)

ويعاصره فى افريقيــة من بنى الأغلب عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم فاتح صقلية (٢٠١ - ٢٢٣)

ويعاصره فى فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفى سنة ٨١٤ ثم لويز الأول الملقب باللين

ويعاصره فى القسطنطينية ليون الارمنى (٨١٣ - ٨٢٠) ثم ميخائيل الثانى الملقب بالتمتام ثانى مرة (٨٢٠ - ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ - ٨٤٢)

الاحوال فى المدة الأولى

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين كان الذى يدبر الأمر عمرو الفضل بن سهل الذى يرى لنفسه الفضل الأكبر فى تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الـكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدى طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والـكوفة والحجاز واليمن . وكتب الى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الاعمال وأن يشخص الى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهرا الا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله

والامر الثانى الى هرثمة يأمره بالشخوص الى خراسان فشخص — وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون

من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدى المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان . هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الاسلامية الى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الاسلامية . أو رأى أن نفوذه يضعف اذا حل الخليفة بغداد وبها الالسنة التى لا تمل الوشايات فخشى من ذلك على مركزه . سواء أكان السبب فى تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثرا بعد عين

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصرا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بنى هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن فى الأمصار

وأول فتنة كانت خروج محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسن بن على خرج بالكوفة وقام بأمره رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبى جعفر المنصور فأرسل اليه الحسن بن سهل جيشا يقوده زهير بن المسيب فى عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفى غد ذلك اليوم مات محمد بن ابراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة ١٩٩ فولى أبو السرايا بدله غلاما أمرد حدثا وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على وكان أبو السرايا هو الذى

ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من شاء واليه الأمور كلها

أرسل الحسن جيشا ثانيا بقيادة عبدوس بن محمد بن أبى خالد المروروذى فتوجه اليه أبو السرايا وأوقع به وقعة فى ١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد

انتشر بعد ذلك الطالبيون فى البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً وكلما وجه أحدهم لحرب أبى السرايا عاد مهزوما فوجه فكرته الى هرثمة بن أعين مفضلا اياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه الى خراسان مغاضبا للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث اليه يسأله الانصراف الى بغداد لحرب أبى السرايا فأبى فأعاد عليه الرسالة متلطفا فأجاب وانصرف الى بغداد فقدمها فى شعبان سنة ١٩٩ وتهيأ للخروج الى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبى السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبى السرايا مقتلة عظيمة . ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادرا على حماية الكوفة التى هى قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار الى القادسية فى محرم سنة ٢٠٠ ودخل هرثمة الكوفة وآمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم

ترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن على الباذغيسى المعروف بالمأمونى فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحا شديدة فهرب مريدا منزله برأس العين من الجزيرة فعثر

به فى الطريق هو ومن معه وجىء بهم الى الحسن بن سهل وكان مقيما بالنهروان فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد . وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبى السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة وكان اذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيرا وأمن

وكان للطالبيين فى تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فان أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن على بن الحسين بن على وكان بها داود بن عيسى ابن موسى العباسى واليا فلم يرض القتال فى الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التى عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الاصفر بن أبى الاصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التى كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد الى ما فى خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبنى العباس وأتباعهم الا هجم عليه فى داره فان وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وان لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للمسودة من بني العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقا كثيرا وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فتتبعوهم

بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذى فى رؤس أساطين المسجد فيخرج من الاسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبى السرايا وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا الى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخا وادعا محببا فى الناس مفارقا لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروى العلم عن أبيه وطلبوا اليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر اليه الناس فبايعوه طوعا وكرها وسموه أمير المؤمنين فأقام على ذلك أشهرا وليس له من الأمر الا اسمه وابنه على وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلا حتى تعدوا الأموال الى الأعراض

أراد الله أن يفرج عن أهل مكة ماهم فيه فقدم عليهم اسحاق بن موسى بن عيسى مقبلا من اليمن فقاتل العلويين أياما ثم بارح مكة فلقيه البعث الذى أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميل فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين الى ناحية

أما فى اليمن فكان قد خرج فيها ابراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها اسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع باقبال ابراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلدا عمه داود بن عيسى فى مكة فاستولى ابراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار

لكثرة من قتل باليمن من الناس . وفى موسم سنة ٢٠٠ وجه بعض ولد عقيل بن أبى طالب من اليمن فى جند كثيف ليحج بالناس وكان الذى ولى امرة الحج من العباسيين أبا اسحق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيلى الى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلوبين . بلغ أبا اسحق أمر العقيلى فأرسل اليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد الى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلا من هؤلاء الاسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس فى الطريق حتى هلك أكثرهم جوعا

انتهت هذه الفتن العلوية التى عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل فى انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك . ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه الى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن ذلك مما يروق فى عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذى دس الى أبى السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء الا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده . وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتبا من الطريق ليرجع ويلى الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه . ولما بلغ هرثمة مرو خشى أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كى يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق

ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل الى الاعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث فى حبسه أياماثم دسوا اليه فقتلوه وقالوا انه مات . هكذا ذهب هذا القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة

ولما بلغ أهل بغداد ماصنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن ابن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه . ثم عمد أهل بغداد الى منصور بن المهدى وطلبوا اليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا اليه أن يكون عليهم أميرا وأن يدعو للمأمون وقالوا لا نرضى بالمجوسى بن المجوسى الحسن ابن سهل ونطرده حتى يرجع الى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد الا أنها على كل حال كانت خالية من جيش قوى يأخذ على أيدى المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فان فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديدا وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لاسلطان يمنعهم لان السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة فى الطرق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم . رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم

فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم الى بعض وقالوا انما فى الدرب الفاسق والفاسقان الى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق . فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته الى أن يعاونوه على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابوه الى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم الى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان . ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الانصارى فدعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلق مصحفا فى عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعا الى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد أسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبى المارة وقال لا خفارة فى الاسلام — والخفارة أن يأتى الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك فى خفرى أدفع عنه من أراده بسوء ولى فى عنقك كل شهر كذا وكذا درهما فيعطيه ذلك شاء أم أبى

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان فى القبض على أيدى المفسدين ولا يعيب عليه شيئا ولا يقاتله ولا يأمره بشىء ولا ينهاه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال انى أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطانا كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة وخافه منصور بن المهدى الذى أقامه العراقيون أميرا

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء فى مثل ظروفهم لان ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التى تقارن هذه المفاسد عادة

كل ذلك كان والمأمون فى مرو لا يصل اليه شئ من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل اليه الا ما يشتهى

ومما كان فى تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده عليا الرضا بن موسى ابن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذى اختاره شعارا للدولة الجديدة وكتب بذلك الى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لان الفرس يعجبهم أن يكون امام المسلمين علويا وطالما قاتلوا فى سبيل رجوع السلطان الى بنى على وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل على على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون الا من البيئة التى تربى فيها فانه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل الى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الامر من ولد العباس وانما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياما وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم الى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولى بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيرا على

مبايعة ابراهيم بن المهدى عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك فى أول المحرم سنة ٢٠٢ فتغلب ابراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقى من بغداد العباس بن الهادى والجانب الغربى اسحاق بن الهادى . وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه

بلغت هذه الاحوال المأمون ويقال ان الذى أبلغه اياها على الرضا ولى عهده فانه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الاخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لابراهيم ابن المهدى بالخلافة — فقال له المأمون انما بايعوه ليكون أميرا لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل — فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين ابراهيم بن المهدى والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فاخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أمانا من الفضل بن سهل وأخبروه بما موه عليه الفضل فى أمر هرثمة وأن هرثمة انما جاء ناصحا ليبين له ما يعمل وأنه ان لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس الى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى حتى اذا وطأ الامر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية من الارض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترئ به على الحسن بن سهل وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج الى بغداد فان بنى هاشم والموالى والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاؤا بالطاعة لك

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل الى بغداد . ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح على الرضا الى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فاعلمه أنه يدارى ما هو فيه

ارتحل المأمون من مر و حتى أتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك فى ٢ شعبان سنة ٢٠٢ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلماجىء بهم اليه قالوا أنت أمرتنابقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم . وسوابق الفعلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لانه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم و بعث برءوسهم الى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه

رحل المأمون من سرخس يوم عيدالفطر وقد كان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد على ابراهيم بن المهدى لان السبب الذى من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر ابراهيم ببغداد

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهى وفاة على الرضا ويتهمون المأمون بانه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لانه بقدر مايقربها ارادة المأمون التقرب الى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروسا فى نفس المأمون من محبة آل أبى طالب وأنه صاهر عليا وأن عليا هو الذى أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندى أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون

اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شرا وهو خروج الخلافة من آل العباس . وهناك كتب المأمون الى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى

رحل المأمون من طوس الى الرى وهناك تحبب الى أهلها باسقاط الفى الف درهم من خراجها . وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على ابراهيم بن المهدى وقام القواد فى وجهه حتى كتبوا الى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون اليه الحضور ليسلموا اليه بغداد فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع ابراهيم بن المهدى والدعوة المأمون فاختفى ابراهيم ليلة الاربعاء ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما

ما زال المأمون ينتقل من منزلة الى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج اليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لانه أمره بذلك وفى يوم السبت لاربع عشرة بقيت من صفر سنة ٢٠٤ دخل مدينة بغداد ولباسه ولباس أهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون . ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم فى ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصة وقالوا له ياأمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب اليه فى ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع الى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له فى لبس الخضرة وكراهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهرا ثم دعا بعدة من قواده فالبسهم

أقبية وقلانس سودا فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد

ابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقي

المأمون ببغداد

أشرقت شمس أبي العباس عبد الله المأمون ببغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقي وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الأمة سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد الى تقوية تلك الحركة وسنبين ذلك في فصل خاص ان شاء الله بعد أن ننتهي من بيان الحالة الداخلية

الوزارة في عهد المأمون

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي الاصل أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ويقال ان أباه سهلا أسلم على يد المهدي والذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد باشارة جعفر بن يحيى . فكان مدبر أمره وهو ولي عهد ولما فعل الأمين ما فعل دبر الفضل أمر ارسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فارسل طاهر ابن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن ماهان . ولما انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علما على سنان ذي شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون في هذه السنة وهي سنة ١٩٦ على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف الف درهم (نحو ستين الف جنيه)

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى على الرضا من بعده . وكان الفضل بن سهل مولعا بالنظر فى النجوم ويقال ان له اصابات كثيرة فى أمور أنبأ عنها قبل موقعها . وجميع ما دبره فى أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأى محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخى اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبى خالد وأصله شامى مولى لبنى عامر بن لؤى وكان أبوه كاتبا لعبيد الله كاتب المهدى أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له انى كنت عزمت ألا أستوزر أحدا بعد ذى الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال ياأمير المؤمنين — اجعل بينى و بين الغاية منزلة يتأملها صديقى فيرجوها لى ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس الا الانحطاط — فاستحسن المأمون كلامه واستوزره

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لامامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الاحقاد من صدورهم ومن طريف ماحصل منه مع المأمون أن المأمون ذكر يوما عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال يظن أنى لا أعرف أخباره ومايحب اليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضرا هذا المجلس فذهب الى عمرو وأخبره الخبر — فراح عمرو الى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال ياأمير المؤمنين أنا عائذ بالله من سخطك ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين الى

أحمد أو يسر لى ضغنا يبعثه بعض الكلام على اظهاره ما يظهر منه — فقال له وما ذاك فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون لم يكن الامر كما بلغك وانما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به وانما أخرج منى هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندى الا ماتحب فليفرخ روعك وليحسن ظنك — وظهر فى وجهه الحياء والخجل . فلما غدا أحمد على المأمون قال له أما لمجلسى حرمة — فقال ياأمير المؤمنين وهل الحرمة الالما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بنى هاشم هو الذى أفشى ما قاله المأمون فقال أحمد أنا ياأمير المؤمنين أخبرت عمرا لا أحدا من بنى هاشم والذى حملنى على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لان تتم نعمتك على أوليائك وخدمك. أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الاعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه وانما كان يكون مافعلت عيبا لوأشعت سرا فيه قدح فى السلطان أو نقض تدبير قد استتب فاما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنبا على فنظر اليه المأمون مليا وقال كيف قلت فأعاد عليه ماقال ثم قال أعد فأعاد الثالثة فقال له المأمون أحسنت لما أخبرتنى به أحب الى من الف الف والف الف والف الف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال أما الف الف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه وأما الف الف فلصدقك اياى عن نفسك وأطلق البنصر وأما الف الف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر

ومن عيوب أحمد بن أبى خالد أنه كان شرها يتقرب اليه الناس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائدته الف درهم لئلا يشره الى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره الى طعام الناس وتمتد عينه الى هدية تأتيه وكان مع هذا أسى اللقاء عابس الوجه يهر فى وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة الى طعام الناس وكثرة العطايا التى كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور فى أخبار بغداد أنه كان يقول يهدى الى الطعام فوالله ماأدرى ماأصنع به يهديه الى صديق أستحى من رده عليه

توفى أحمد بن أبى خالد فى ذى القعدة سنة ٢١١ وصلى عليه المأمون ولما دلى فى حفرته ترحم عليه وقال أنت والله كما قال القائل

أخو الجدان جد الرجال وشمروا ... وذو باطل ان كان فى القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف . كان كاتبا من خيرة الكتاب وأجودهم خطا حتى قال له المأمون يوما ياأحمد لوددت أنى أخط مثل خطك وعلى صدقة الف الف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون اذ كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكتب التى يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة . ولما مات أحمد بن أبى خالد استوزره مكانه وكان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التى وصل اليها من المأمون

فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التى اتبعوها مع هذا الوزير الذى لم يجدوا فيه عيبا من جهة عمله. كان المأمون يستدعى أحمد بن يوسف سحرا لقضاء الأمور معه فقال أحد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون اذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أو لون من الألوان فأعلمنى وضمن له من أجل ذلك مالا . دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحرا وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها الا قليلا فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فامر بأن تنقل تحته . فاخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل على المأمون سأله عما تقوله العامة وما تتحدث به فكان مما أخبره به أن قال انصرفت يوما فمررت بمشرعة وأنا فى الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه فقال ومن تعنى — قال له أمير المؤمنين — قال وما ذاك — قال انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه ما رأيت أحدا قط أبخل ولا أعجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذى كان تحته فبخرنى به — فعرف المأمون الحديث وقال فى نفسه والله ما حضر هذا اليوم أحد فاتوهم فيه ضربا من الضروب — وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته .

استوزر المأمون بعده القاضى يحيى بن أكثم التميمى كان من جلة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة فى الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذي

كان المأمون يثق به كثيرا فلما احتاج المأمون الى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضى القضاة فكان اليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا فى شخص . وكان يحيى على مذهب العامة فكان اذا أراد المأمون شيئا يخالف ماهم عليه احتال فيما يرجعه عنه . أراد المأمون أن يعلن يوما حل المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الاسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا — قال نعم المتعة زنا — قال من أين قال من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين قال لا قال فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال لا قال فقد صار من يتجاوز هذين من العادين — وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبى طالب قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها — فسأل المأمون عن حديث الزهرى أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون أستغفر الله وأمر فنودى بتحريم المتعة . وكان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالامور فصيحا جوابه على قدر سؤال سائله . لقيه مرة رجل فقال أصلح الله القاضى كم آكل قال فوق الجوع ودون الشبع — قال فكم أضحك قال حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك — قال فكم أبكى قال لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى — قال فكم أخفى عملى قال ما

استطعت ــ قال فكم أظهر منه قال مقدار ما يقتدى بك البرالخير ويؤمن عليك قول الناس

وكان يحيي من المحدثين الذين يروى عنهم الحديث وقدا تهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد بن جعفر فى حقه يحيي بن أكثم أحد أعلام الدنيا قداشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الادب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعا عنده . وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال يحيي بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئا الا بعد مطالعة يحيي بن أكثم

وذكر الخطيب فى تاريخه أنه ذكر لاحمد بن حنبل رضى الله عنه ما يرميه الناس به فقال سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك انكارا شديدا ذكر ذلك ابن خلكان فى تاريخه وقال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال أحمد بن أبي طاهر كان المأمون يحضر يحيي بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول لو أراد يحيي أن يشرب ماتركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيي يأكل معه فيقول له المامون فيها مطبوخ انى لا أترك قاضى يشرب النبيذ

ولم يذكر ابن طباطا فى كتابه الفخرى يحيي بن أكثم فى عداد وزراء

المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التى أوردناها أنه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على أيدى الوزراء من الاعمال

ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيرا فقد كان من ضمن وصية المأمون لاخيه المعتصم. ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا فقد علمت ما نكبنى به يحيي بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى فصرت الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته لا جزاه الله عن الاسلام خيرا .

ولولا هذه العبارة فى وصية المأمون لم يكن وصل الى علمنا شيء مما كان بين المأمون ويحيي بن أكثم فى خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت فى مروج الذهب أن المأمون سخط عليه سنة ٢١٥ وذلك بمصر وبعث به الى العراق مغضوبا عليه

وقد طالت حياة يحيي بن أكثم حتى توفى فى عهد جعفر المتوكل

ومن وزراء المأمون أبو عباد ثابت بن يحيي بن يسار الرازى وهو الذى يقول فيه دعبل

أولى الامور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقا . وقد قيل للمأمون ان دعبلا هجاك فقال من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجونى . وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش

ومن وزرائه أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته

من خراسان كانوا مجوسا ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتابا ولا سيما محمدا فانه تأدب وبرع فى كل شئ فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره

ولم يكن للوزراء فى عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحوادث السابقة فى عهد الرشيد ومن قبله بل وفى أول عهد المأمون جعلت الخليفة ينظر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل وجعفر بن يحيى البرمكى وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم

الاحوال الداخلية

العلويون وآثارهم فى الدولة

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده على الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية واتخاذه الشعار الاخضر بدل الاسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب فى بغداد وقيام أبى السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه فى الامصار الكبرى ثم ما كان من وفاة على الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبى السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا فى ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن — ونزع المأمون للشعار الاخضر بعد حلوله ببغداد وعودته الى شعار أهل بيته وهو السواد . وكان المأمون قد صاهر عليا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن على المعروف بالجواد وهو الامام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الاخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون وكان

المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم الى أن خرج فى سنة ٢٠٧ باليمن من آل أبى طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب فوجه اليه المأمون دينار بن عبد الله فى جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ولما فرغ من حجه سار الى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث اليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده فى يد دينار فخرج به الى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد

ومع ذلك فقد جاء فى وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب من وجوه شتى)

وبسبب اختلال الامن فى البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدى المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبى سفيان وهو محمد بن ابراهيم الزيادى فولاه اياها سنة ٢٠٣ فتوجه فحج ثم ذهب الى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وهى التى صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادى بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل الا أنه كان يخطب لبنى العباس ويحمل اليهم الخراج والهدايا وطال ملكه الى سنة ٢٤٥ ثم صار الملك فى أبنائه ثم فى مواليهم وموالى مواليهم الى سنة ٥٥٣ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهى أول الدول استقلالا باليمن

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الاغالبة فى أفريقية فان الرشيد ولاها ابراهيم ابن الاغلب التميمى ليكون حاجزا بين الخلافة العباسية وبين الادارسة الذين بالمغرب الاقصى وكانت توليته اياها سنة ١٨٤ فعظم أمره وصار كملك مستقل الا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك فى أعقابه الى سنة ٢٩٦ وكان الامير فى عهد المأمون عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب (١٩٦ — ٢٠١) ثم زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب الذى استمر ملكه الى سنة ٢٢٣ وهو الذى فتح جزيرة صقلية من أيدى الروم

فهاتان الدولتان من أول الدول المتغلبة على أطراف بنى العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للادارسة والاندلس لبنى أمية

ابراهيم بن المهدى

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لابراهيم بن المهدى اذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون الى بغداد وعلم بقدومه القواد الذى كانوا مع ابراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفيا ببغداد يتنقل من دار الى دار الى سنة ٢١٠ وفى تلك السنة أخذ أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له هيه يا ابراهيم فقال — يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدله من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك — قال بل أعفو يا ابراهيم فقال ابراهيم يمدحه

يا خير من ذملت يمانية به — بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبرّ من عبد الاله على التقى — عينا وأقوله بحق صادع
عسل الفوارع ما أطعت فان تهج — فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظا حذرا وما يخشى العدا — نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة — وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبى وأمى فدية وبنيهما — من كل معضلة وريب واقع
ما ألين الكنف الذى بوأتنى — وطنا وأمرع رتعه للراتع
للصالحات أخا جعلت وللتقى — وأبا رؤفا للفقير القانع
نفسى فداؤك اذ تضل معاذرى — وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة — رفعت بناءك بالمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله — وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله — عفو ولم يشفع اليك بشافع
الا العلو عن العقوبة بعد ما — ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا — وعويل عانسة كقوس النازع
وعطفت آصرة علىّ كما وعى — بعد انهياض الوثى عظم الظالع
الله يعلم ما أقول فانها — جهد الألية من حنيف راكع
ما ان عصيتك والغواة تقودنى — أسبابها الا بنية طائع
حتى اذا علقت حبائل شقوتى — بردى الى حفر المهالك هائع
لم أدر أن لمثل جرمى غافرا — فوقفت أنظر أى حتف صارعى
رد الحياة على بعد ذهابها — ورع الامام القادر المتواضع

أحياك من ولاك أطول مدة ... ورمى عدوك فى الوتين بقاطع
كم من يد لك لم تحدثنى بها ... نفسى اذا آلت الى مطامعى
أسديتها عفوا الى هنيئة ... فشكرت مصطنعا لأكرم صانع
الا يسيرا عند ما أوليتنى ... وهو الكثير لدى غير الضائع
ان أنت جدت بها على تكن لها ... أهلا وان تمنع فأعدل مانع
ان الذى قسم الخلافة حازها ... فى صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها ... وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده ابراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف لاخوته — لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون واعادة ابراهيم بن المهدى للخلافة ورئيس هذا الامر ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام المعروف بابن عائشة

وكان اطلاع المأمون على ذلك فى يوم السبت ٥ صفر سنة ٢١٠ والظفر بابراهيم بن المهدى ليلة الاحد ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠ — وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاما شديدا فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس على باب دار المأمون ثم ضرب به بالسياط ثم أمر بحبسه فى المطبق وفعل قريبا من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم فى هذا الامر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لاحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواما برآء . ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب فى الاسلام من بنى العباس وقتل معه ثلاثة من رؤس المتآمرين

وكان قتلهم فى ١٤ جمادى الآخرة من تلك السنة

نصر بن شبث

كان نصر بن شبث من بنى عقيل يسكن يكسوم شمالى حلب وكان عربيا شريفا شهما له فى محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربى قد انحط شأنه وصار معظم القواد والامراء من غيرهم فاظهرهم الخروج على السلطان وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩٨ وتغلب على ماجاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الاعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات الى الجانب الشرقى وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولى الحسن بن سهل على كل ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك اليه وأن يسير الى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر الى وجهه وأرسل الى الى نصر يدعوه الى الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم اليه طاهر ولقيه بنواحى يكسوم فاقتتلا هناك قتالا عظيما أبلى فيه نصر بلاء حسنا فكان النصر له وعاد طاهر الى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحى . والظاهر أنه لم يكن جادا فى حرب نصر لأنه رأى نفسه قد جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشئ مما جناه

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حرّان بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك — فقال من أى الناس — فقالوا نبايع لبعض آل

علی بن أبی طالب . فقال أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول انه خلقنى ورزقنى . قالوا فنبايع لبعض بنى أمية . قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولو سلم علىّ رجل مدبر لاعدانى ادباره وانما هواى فى بنى العباس وانما حاربتهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم . ولما شخص المأمون الى بغداد أمر طاهرا أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره أن يقاتل نصرا فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبدالله من الرقة الى مصر وأمره بالجد فى محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر الى ابنه عبد الله ذلك الكتاب المشهور الذى جمع فيه كل ما يحتاج اليه الامراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغنى عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرئ عليه فقال ما أبقى أبو الطيب (يعنى طاهرا) شيئا من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به الى جميع العمال والنواحى

ذهب عبد الله الى وجهه فى محاربة نصر فجد فى أمره وحصره وضيق عليه حتى مال الى طلب الامان وفى ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامرى ليؤدى الى نصر رسالة فذهب اليه وهو بكفر عزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التى يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح الى السلم فأذعن وشرط شروطا منها ألا يطأ بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيت الى بيع قميصى حتى يطأ بساطى . فعاد الرسول الى نصر

فأخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلى عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعنى الزط) يقوى على حلبة العرب . ولكنه مع جد عبد الله بن طاهر فى حربه أجاب الى التسليم وطلب الامان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج الى عبد الله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر الى المأمون فدخل بغداد فى صفر سنة ٢١٠ وأنزل مدينة أبى جعفر ووكل به من يحفظه

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين

الزط

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد اه وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ ويظهر أنهم كانوا اذا أحرجتهم الجنود تفرقوا فى تلك الفيافى فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠٦ أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثرا فاصلا بدليل ماورد فى عبارة نصر بن شبث (انه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك الى سنة ٢١٩ فى عهد المعتصم حيث وجه اليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا فى طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة

وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم ٥٠٠ رجل وقتل منهم فى المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الاسرى وبعث برؤس جميعهم الى المعتصم . ثم أقام بازائهم ١٥ يوما ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلا يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق . ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الامان فآمنهم فخرجوا اليه فى ذى الحجة سنة ٢١٩ على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم فيما ذكر ٢٧ ألفا المقاتلة منهم ١٢ ألفا وأحصاهم عجيف ٢٧ ألف انسان بين رجل وامرأة وصبى ثم جعلهم فى السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوما وعبأهم فى زواريقهم على هيئتهم فى الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم الى الجانب الشرقى فدفعوا الى بشر بن السميدع فذهب بهم الى خانقين ثم نقلوا الى الثغر الى عين زربة — وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٤١ فى عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيرا من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم

بابك الخرّمى

بين اذربيجان وأرّان فى شمال بلاد الفرس كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرس العظيم . بهذه الكورة خرج بابك التى امتدت فتنته زمنا طويلا فى عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه سنة ٢٠١ فى عهد المأمون ومنتهاه سنة ٢٢١ فى عهد

المعتصم . ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفئته وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه فى دولة المأمون والمعتصم

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء فى ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية بالحاء والراء المهملتين كما جرى عليه ابن النديم فى فهرسه وهم صنفان الحرمية الاولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والاكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة فى الحرم والاهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وادخال الآلام على النفوس ولهم مذهب فى الضيافات ليس هو لأحد من الامم اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائنا ما كان وعلى هذا المذهب مزدك الاخير الذى ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه . الصنف الثانى الحرمية البابكية ينسبون الى صاحبهم بابك الحرمى وكان يقول لمن استغواه انه اله وأحدث فى مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرمية . أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانى المروزى فى كتاب الانساب « الخرمى » نسبة الى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وانما لقبوا بذلك لاباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل مايتلذذون به فلما شابهوا فى هذه الاباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا

فى أيام قباذ وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات الى أن قتلهم أنوشروان ابن قباذ قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية . وقال صاحب القاموس خرمة قرية بفارس منها بابك الخرمى — ثم قال وتخرمدان بدين الخرمية لاصحاب التناسخ والاباحة

ومن ذلك يظهر أن ماجاء في فهرس ابن النديم تحريف

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد من رستاق ميمند ثم اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهما وشهامة وخبثا فقربه اليه . ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته فى أن يكون بابك مكانه فى الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم ان جاويدان قال لى انى أموت فى ليلتى هذه وان روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى وقد رأيت أن أملكه على أصحابى فاذا مت فاعلمهم ذلك وأن لا دين لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك

أخذ بابك ومن معه فى العيث والفساد واخافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان سنة ٢٠١ والمأمون بمرو لم يبرحها الى بغداد فلما شخص المأمون الى بغداد عين أحد قواده يحيي بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها أحدهما من الآخر . فاختار المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد ابن أبى خالد فولاه أرمينية واذربيجان ومحاربة بابك فنكب . ثم وجه اليه صدقة بن على المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى فأسره بابك . ثم وجه اليه محمد بن حميد الطوسى فقتله بابك سنة ٢١٤ بهشتادسر

وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه . هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائد لم يصنع شيئا لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره فى قلوب الجمهور الذى كانوا معه . وقد ذكر فى حوادث سنة ٢١٨ دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وما سبذان ومهرجان قذق فى دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان وذلك أول ولاية المعتصم فوجه اليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه اليهم وجهه المعتصم مع اسحاق بن ابراهيم ابن مصعب وعقد له على الجبال فشخص اليهم وفض جموعهم وقتل فى عمل همذان ستين الفا منهم وهرب سائرهم الى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد واكنفه بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده فى كسر شوكة بابك لئلا يمتد شر بدعته فى البلاد الفارسية فاختار لحربه قائدا تركيا من كبار قواده وهو حيدر بن كاوس الاشروسنى المعروف بالافشين (الافشين لقب لملوك اشروسنة) وذلك سنة ٢٢٠ وقبل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمد ابن يوسف الى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة الى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمر به وأوقع بسرية أرسلها بابك للاغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند . ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من

سامرا الى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيل ركضا حتى يؤديه من واحد الى واحد يدا بيد ومن حلوان الى أذربيجان رتب فيه دواب المرج فكان يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينعروا اذا جاءهم الخبر فاذا سمع الذى يليه النعير تهيأ فلا يبلغ اليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الافشين الى سامرا فى أربعة أيام وأقل

توجه الافشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قوادا من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق الافشين عيونه وجواسيسه لتعرف الاخبار عن بابك وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشق أحد حصون الافشين حيث خرج بابك ليقتنص مالا أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الافشين فخرج اليه سرا والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الافشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو فى نفر يسير ودخل موقان ومنها توجه الى البذ وعاد الافشين الى عسكره ببرزند

استمرت الحروب بين الافشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون الا اذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التى كانت تكسو رؤس الجبال وتمنع المشاة من التقدم الى أن كان الربيع سنة ٢٢١ فسار الافشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترسا وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الامر

باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليه . وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الافشين تدبيره وسد عليه المسالك وأوقف عليها جندا من جيشه وأخيرا قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الافشين الى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما ١٧ رجلا من أهل بيته ومن البنات والكنات ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوما مشهودا ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد

وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة ٢٥٥٥٠٠ انسان وغلب كثيرا من القواد الذين ذكرناهم وكان عنده من الاسرى الذين استنقذهم الافشين ٧٦٠٠

الخراج فى عهد المأمون

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخى يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الاقاليم التى دخلت تحت حكم الدولة العباسية وهو الثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما فى ذلك الثبت من الفائدة أحببنا أن ننقله عنه وها هو ذا

الاقاليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٠٠٠ ٨٠٠ ٢٧ درهم	٢٠٠ حلة نجرانية ٢٤٠ رطلا من طين الختم
كسكر	٠٠٠ ٦٠٠ ١١ »	
كوردجلة	٠٠٠ ٨٠٠ ٢٠	
	٠٠٠ ٢٠٠ ٦٠	

ما قبله	٦٠ ٢٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل سكر ٣٠ ٠٠٠ قارورة ماء ورد
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل زيت أسود ٥٠٠ ثوب متاع يماني ٢٠ ٠٠٠ رطل تمر
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١٢ ٥٠٠ ٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندى ٢٠٠ ثوب معين ٢٠ رطل من الفانيذ
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢ ٠٠٠ نقرة فضة ٤ ٠٠٠ برذون ١ ٠٠٠ رأس رقيق ٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع ٣٠ ٠٠٠ رطلا اهليلج
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١ ٥٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والرويان ودنباوند	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبري ٢٠٠ كساء ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل ٣٠٠ جام
الرى	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رطل رب الرمانين ١٢ ٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
	٢٢٣ ٩٠٠ ٠٠٠ درهم	

ما قبله	٢٢٣ ٩٠٠ ٠٠٠ درهم	
شهرزور	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما اليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما اليها من عمل الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رأس رقيق ١٢ ٠٠٠ زق عسل ١٠ بزاة ٢٠ كساء ٢٠ قسط محفور ٥٣٠ رطل رقم ١٠ ٠٠٠ رطـل من المسايح السـور ما هى ١٠ ٠٠٠ رطل سونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهرا
أرمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	١٢٠ بساط
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
أفريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	
	٣١٩ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم	
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠ دينار	
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠ «	
الاردن	٩٧ ٠٠٠ «	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠ «	٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
مصر	١ ٩٢٠ ٠٠٠ «	
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠ «	
الحجاز	٣٠٠ ٠٠٠ «	
	٣ ٨١٧ ٠٠٠	

فمجموع الخراج من الدراهم ٠٠٠ ٦٠٠ ٣١٩ درهم و٠٠٠ ٨١٧ ٣ دينار ومن العروض ماذكر أمام كل اقليم واذا قوم بلغ شيئا كثيرا . كان هذا كله يرد الى بغداد حاضرة الخلافة و يتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته و يصرف منه فى الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقى بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه فى الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا . ومن نموذج ما كان يصرف على أيدى الخلفاء ما رواه الطيفورى فى أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ درهم حمله اليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون الى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة الى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الاموال قد ملكناها دونهم انا اذا للئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فما زال كذلك حتى فرق ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤ ورجله فى الركاب ثم قال ادفع الباقى الى المعلى يعطى جندنا — قال راوى الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفى عنها لا يلحظنى الا يرانى بتلك الحال فقال يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الالف لا يختلس ناظرى قال فلم يأت ليلتان حتى أخذت المال . وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر

الجيش

ظهور الدولة العباسية على أيدى أهل خراسان والموالى جعل لهؤلاء شأنا عظيما فى الدولة ومقاما لا ينقص عن مقام العرب فى اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب . وقيام دولة المأمون بأهل خراسان

زاد مالهم في تلك الدولة وبقدر مازادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدى والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند انما هم من أهل خراسان والأبناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر . روى الطيفورى أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان قال أكثرت على يا أخا الشام والله ماأنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا . أعزب فعل الله بك . وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التى كان العالم الاسلامى يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية الا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربى فقد أشرفت على الامحاء

القواد العظام فى عهد المأمون

أكبر من اشتهر فى عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة وبعد الصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان . كان جده رزيق مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان من قبل

مسلم بن زياد بن أبيه والى خراسان ولا ندرى أكان مولى اسلام أم مولى عتاقة ويغلب على الظن أنه مولى اسلام أسلم على يده فانتسب الى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعى وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين سنة ١٥٩ وكان جده مصعب بن رزيق واليا عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى داعية بنى العباس

نشأ طاهر ببوشنج شهما شجاعا أديبا وأول ما أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التى قام بها فى قود الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفرا عظيما كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته الا أن الفضل بن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وارساله الى الجزيرة لحرب نصر بن شبث . ولما شخص المأمون الى بغداد ومات الفضل فى الطريق أمر المأمون طاهرا أن يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التى تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد

كان الذى يتولى خراسان فى ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون أن عبد الرحمن المطوّعى جمع جمعا بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لاصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها اذا لم تتدارك برجل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهرا فاختاره المأمون لذلك وولاه من حلوان الى أقصى عمل المشرق فتوجه الى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفورى عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول ما حابى طاهر

فى جميع ما كان فيه أحدا ولا مالأ أحدا ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر فى شئ وفعل فى جميع ماركن اليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحدا من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته ومناصحته وغنائه واجزائه قال ثم كان يحلف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهدا مؤكدا لليمين على نفسه

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه والى بريد يكتب الى المأمون باخباره قالوا كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بهم فى سنة سبع لم يصل بهم الا ذلك اليوم فانه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكتب والى البريد الى المأمون بذلك وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ماظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقا فانه لم يكن هناك داع الى ذلك مطلقا

وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان من سنة ٢٠٥ الى سنة ٢٥٩ حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى أول الدول استقلالا بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب فى دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائما بين مرو و بغداد

عبد الله بن طاهر . ولد عبد الله سنة ١٨٢ فى خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده فى حوادث المأمون نحو ١٦ سنة فتربى فى كنف المأمون فخرج شهما نبيلا أديبا وكان المأمون يحبه حبا جما ولاه

حرب نصر بن شبث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصرا الي الطاعة بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيه طاهر فى الشرط وأعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه اسحاق بن ابراهيم بن مصعب

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون أن يسير الى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد الله بن السرى أمير مصر وفتنة جالية الاندلسيين بالاسكندرية فذهب اليها واستنزل عبيد الله بن السرى من معاقله بعد أن أذله وأجلى الاندلسيين عما غلبوا عليه . قال يونس بن عبد الاعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر . قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث — يعنى عبد الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم فى بلاء فاصلح الدنيا وأمن البرئ وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة . وكتب اليه أحمد بن يوسف وزير المأمون اذ ذاك يهنئه بذلك الفتح — بلغنى أعز الله الامير مافتح الله عليك وخروج ابن السرى اليك فالحمد لله الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد لله على ما وليك به مذ ظعنت لوجهه فانا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك فى حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان فى مواضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك ولقلما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أبوته ومن أوتى حظا وكفاية وسلطانا وولاية لم يخلد الى ماعفا له حتى يخل بسماماة ما أمامه ثم لا نعلم سائسا استحق

النجح لحسن السيرة وكف معرة الاتباع استحقاقك وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحدا بهوى عند الحاقة والنازلة المتصلة فليهنك منة الله ومزيده ويسوغك الله هـذه النعمة التى حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل امامك ومولاك ومولى جميع المسلمين وملاك وايانا بالعيش ببقائه وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرما مقدما معظما وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة فاصبحوا يرجونك لانفسهم ويعدونك لاحداثهم ونوائبهم وأرجو أن يوفقك الله لمحابه كما وفق لك صنعه وتوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدد الا تذللا وتواضعا فالحمد لله على ما أنا لك وأبلاك وأودع فيك والسلام . وكتب له المأمون كتابا وكتب فى أسفله

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر فانى الدهر أهواه
وما تكره من شئ فانى لست أرضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله

ولما عاد الى مصر سنة ٢١٢ ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك وصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر واليا بها حتى مات سنة ٢٣٠ فى عهد الواثق

العلم فى عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم فى العصر العباسى وذلك لامرين الاول — أن المأمون نفسه قداشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس

كثيرا من العلماء وأخذ عنهم جلة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محبا للعلم ولازدياد نشره — الثانى — ما كان من الامة نفسها اذ ذاك حيث وجد فيها شوق الى العلم والبحث وكثر العلماء فى كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأى الامام واستعداد الامة فكان من وراء ذلك ماتقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد

العلوم التى نريد بيان حالها نوعان علوم دينية وعلوم عقلية

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لاصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع الى أحكام الاعمال وهى الفقه وأصوله وأدلة تلك الاحكام من القرآن والحديث

ظهر فى ذلك الوقت جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا فى البحث فى أصول الدين والعقائد وحكموا فى البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ماعليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف فى مدينة البصرة وامتد منها الى بغداد . وجد بالبصرة واصل ابن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذى كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه

كلكم يمشى رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسى وعمرو بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤس الاعتزال

وأصحاب الآراء والاقوال وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور أهل الحديث (١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون ان أفعال العباد مخلوقة لهم لالله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها الا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد (٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والارادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا ان الله قادر بذاته والذى أداهم الى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة ان الله قدير بقدرة وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها . وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن أهو قديم لانه صفة لله جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لانه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والاصوات فى جسم محدث يسمعه النبي منه وهذا عندهم هو الوحى .

وهاتان المسئلتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة

وكما كان الاختلاف قد ظهر فى أصول الدين التى تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر فى الفقه الذى هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأى كما بيناه فى تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم فى التشريع واقتدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبى حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان فى أول عصره كالشافعى محمد بن ادريس الذى توفى فى السنة التى دخل فيها المأمون بغداد .

والفرق بين هؤلاء فى اختلافهم وبين أولئك أن المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون فى أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص فى الاخرى وربما تلعنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة انهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الامة وما تدل عليه الاخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث انهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهى مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله ﷺ فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون فى الاستحقاق ترتيبهم فى تولى الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن عليا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون فى الحكم على من سبق عليا من الخلفاء فمنهم الغالى ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الامامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء

ولم يكن قبل المأمون لاصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث واظهار الآراء بل كانوا يخشون بأس العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لان الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لان القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع اليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث

ويجعل لهم مجالس المناظرة ويظهر أنه كان يرمى الى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى وتتفق كلمة الامة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الامامة

قال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال التغلبي سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون ياأبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا ما نقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على الا بانتقاص غيره من السلف والله ما أستحل أو قال ماأستجيز أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وان الرجل ليأتينى بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشئ الذى لعل قيمته لا تكون الا درهما أو نحوه فيقول ان هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندى بثقة ولا دليل على صدق الرجل الا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بالف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك بالنظر اليه وبمسه فاستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به كصيانتى نفسى .وانما هو عود لم يفعل هو شيئا ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة الا ما ذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والاقارب وفارق

الاهل والاولاد واغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ياسبحان الله والله لولم يكن هذا فى الدين معروفا لكان فى الاخلاق جميلا وان من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة ماهو أقل من هذا معاذ الله مما فطن به الجاهلون.

ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته الى البدعة فى تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقارب به فى الفضل وقد قال الله جل من قائل — ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض — ثم وسع لنا فى جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا اليه اذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد اذ شهد لهم بالعدالة والتفضل أمر لو جهله جاهل رجونا أن لا يكون اجترح اثما — وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخر واحتج فى كسره وابطاله فى الاحكام فى الفروج والدماء والاموال التى النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل فيغلط فى مثل هذا أحد يعرف شيئا أوله روية أوحسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد الالطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الامر الذى قد عقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك الا أن ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عنه عند ذكر مخالفته اياه فيه فاذا خولف فى نحلته ولعلها مما وسع الله فى جهله أو قد اختلف السلف فى مثله فلم يعاد بعضهم بعضا ولم يروا فى ذلك اثما فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالامور التى حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها لينتهبوا أموال الناس

ويستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الفتنة زئير الاسد على فرائسها — وانى لارجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على اتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين اما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا واما معاند فيرد بالعدل كرها .

وروى أيضا عن بشر المريسى قال حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد ابن أبى العباس وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الامامية ونصر على بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما الى أن قال محمد لعلى يانبطى ما أنت والكلام . فقال المأمون وكان متكئا فجلس الشتم عى والبذاءة لؤم انا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الامرين حكمنا فيه بما يجب فاجعلا بينكما أصلا فان الكلام فروع فاذا افترعتم شيئا رجعتم الى الاصول

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بامعان النظر

(١) أن المأمون أباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها أمة وما ظنك بخليفة عباسى تناظر فى مجلسه اثنان فى الامامة فينصر أحدهما الامامية والثانى الزيدية وهذان المذهبان كلاهما ان صحا يذهبان بما فى أيدى آل العباس من الامامة ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم

(٢) أن طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لانه علم عنه الموافقة على بعض آراء تخالف رأى العامة كما كان مذهبه فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه برئ وهو انتقاص

غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه فى ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه

(٣) أن المأمون كان يرى فى علماء وقته أنهم انما كانوا ينكرون ماينكرون فى الآراء التى كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها فى الدين أثر ويغفرون لمن خالفهم فى الامور الجسمية التى تترتب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشئ مما يعتقدون به رياسة عند العامة

(٤) أن المأمون كان يظن أنه بمجلس المناظرة هذا يتوصل الى ازالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فان الشاك يتبين أو يتثبت والمعاند يكره

وهذا الذى فعله المأمون أول تجربة وآخرها لانه لم يفكر أحد ممن قبله فى مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يعد احد من الخلفاء الى مثله

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثيرة التى كانت بين يدى المأمون الى أنه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فانه لم يكن قدريا روى الطيفورى عن محمد بن اسحاق بن ابراهيم اليزيدى أنه سمع ثمامة يقول ان المأمون عامى لتركه القول بالقدر وانما الذى صار اليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة ٢١٢ وكان يظن كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الامة يجيبوه الى اعلان رضاهم به فكانت النتيجة عكس ما ظن فانهم تكلموا فيه وقالوا انه مبتدع وغلا بعضهم فى ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التى لم تكن تستحق تجسيما اذا نظر اليها بشئ من التدقيق ولم تكن هناك

أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور

مرت سنوات أربع والخلف يتسع والكلام من الفريقين فى الآخر يزيد حتى كانت سنة ٢١٨ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه فى رد الفقهاء الى رأيه حتى لا يكون معترفا بفشله فيما شرع فيه فكتب كتابا وهو غاز الى اسحق بن ابراهيم عامله على بغداد (محافظها) بين فيه أن واجبه بصفته اماما للمسلمين أن يجتهد فى اقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال — ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السنة وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين الى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم فتركوا الحق الى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة الى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التى اليها أجروا واياهم طلبوا فى متابعتهم والكذب على مولاهم — وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لاسحاق — فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب

أمير المؤمنين هذا اليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن واحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والامر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله الا بشهادة أهل البصائر فى الدين والاخلاص للتوحيد واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله وكتب فى شهر ربيع الاول سنة ٢١٨

وكتب الى اسحاق أن يشخص اليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد ابن ابراهيم الدورقى فاشخصوا اليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم الى مدينة السلام وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم .

وكتب المأمون الى اسحاق كتابا ثانيا زاد فيه على الكتاب الاول قال فيه فى صفة من خالفوه — وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ولا نصيبا من الايمان واليقين ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى

أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قول ولا حكاية ولا تولية شئ من أمر الرعية

فجمع اسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لاسحاق .

قال لبشر بن الوليد ما تقول فى القرآن — فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة — قال فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى — قال — أقول القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال الله خالق كل شئ — قال أما القرآن شئ — قال هو شئ — قال فمخلوق هو — قال ليس بخالق — قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال ماأحسن غير ماقلت لك وقداستعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندى غير ما قلت لك .

وقال لعلى بن أبى مقاتل ماتقول ياعلى — قال قد سمعت كلامى لامير المؤمنين فى هذا غير مرة وما عندى غير ماسمع — فقال له القرآن مخلوق — قال القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا — قال هو كلام الله وان أمرنا أمير المؤمنين بشئ سمعنا وأطعنا

وقال لابى حسان الزيادى القرآن مخلوق هو — قال القرآن كلام الله — والله خالق كل شئ ومادون الله مخلوق وأمير المؤمنين امامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع مالم نسمع وعلم مالم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدى اليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى امامته امامة وان أمرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا وان دعانا أجبنا — قال القرآن مخلوق هو — فاعاد اليه حسان مقالته —

قال ان هذه مقالة أمير المؤمنين ــ قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم اليها وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتنى به فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شئ فان أبلغتنى عنه بشئ صرت اليه — قال ما أمرنى أن أبلغك شيئا — قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها

وكان اسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعا أرسل الى المأمون نتيجة الامتحان . ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب فى شأنهم كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة فى عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الانبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس ما يشغله وأنه لو كان مقتفيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج الى الشرك بعد ايمانه .

وأما الفضل بن غانم فاعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر وما اكتسب من الاموال فى أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك فانه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع ايمانه طمعا فيهما وايثارا لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل

لعلى بن هشام ماقاله والمخالف له فيما خالفه فيه فما الذى حال به عن ذلك ونقله الى غيره

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها اياه عبد الرحمن بن اسحاق وغيره تربصا بمن استودعه وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الايام به فقل لعبدالرحمن بن اسحاق لاجزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وايمانك اياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بابى معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم الا لاربائهم وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركا وصاروا للنصارى مثلا

وأما سعدويه الواسطى فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث

وأما المعروف بسجادة وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه فى شغله باعداد النوى وحكه لاصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها اليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه ان كان شاهدهما وجالسهما .

وقد ذكر مثل ذلك فى غير هؤلاء وخلاصة مايطلب فى هذا الكتاب أنه ذكر

له رجلين هما بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدى أمره أن يستتيبهما فان تابا أشهر أمرهما والا ضرب أعناقهما أما من عداهما فان لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعا موثقين الى عسكر أمير المؤمنين . وقال فى ختام هذا الكتاب ـ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجا ما اعتمد وادراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل اجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندراية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه ان شاء الله وكتب سنة ٢١٨

فاحضرهم اسحاق مرة ثانية وسألهم فاجابوا جميعا ان القرآن مخلوق ماعدا أربعة منهم فامر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم الثانى أعاد عليهم المحنة فاجابه واحد من الاربعة فاطلقه وفى اليوم الثالث فعل كذلك فاجابه ثان وبقى اثنان صمما على عدم الاجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما اسحاق الى طرسوس . وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على اسحاق يقول له فيه ان سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب اليه أن بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى فى عمار بن ياسر الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان — وقد أخطأ التأويل انما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الايمان مظهر الشرك فاما من كان يعتقد الشرك مظهر الايمان فليست هذه له فاشخصهم جميعا الى طرسوس ليقيموا بها الى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعا ولما وافوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا الى مدينة السلام

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهى نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم وجمعهم على رأى واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف فى مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا ولكن المأمون قال ان أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة أو سببا لرياسة فان الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الامور فان الخلاف الشديد لا يجد اليه سبيلا اذا لم يكن أساسا لنحلة أو سببا لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحا ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له فى هذه المسألة لا نرى للمأمون حقا وهو سلطان الامة أن يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذى سنه مما بيناه

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون فى مسئلة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبتهم وعدوا ذلك عيبا من عيوبهم وقد كاد امام المحدثين البخارى يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فان فريقا من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظى بالقرآن مخلوق وكان البخارى ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى امام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفا من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فانه لما سمع محمدا يقول من قال لفظى بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا أخذ كساءه وخرج . أما الذين وقفوا فى المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فانهم استحقوا من العناية والتكريم مالا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الامام أحمد بن حنبل فان هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفا عظيما

ولم يكتف المأمون بما كان منه فى حياته بل أوصى الى أخيه المعتصم الذى

استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته فى القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن له فى ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد فى الامر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على انكار أن يكون القرآن مخلوقا ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الحبوس وهو صابر محتسب

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه فى هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد ابن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه كانت من السلطان فى دولة بنى العباس ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد اذا تكلم عن الواثق يقول الا فعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لانكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لابيه وجده فى دولة بنى العباس من الاثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال انه أجاب الى ذلك وسعى له فى دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا وألفا فرقتين احداهما بالجانب الشرقى والاخرى بالجانب الغربى من بغداد واتعدوا ليلة يضربون فيها طبولهم للاجتماع صبيحتها للوثوب بالسلطان فاتفق أن بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبيذا فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن ابراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتتبع القوم من ليلتهم فأخذوا

وصيروا الى الحبس وقبض احمد بن نصر أيضا وحمل رؤس القوم الى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلسا عاما لامتحانهم ولما حضروا اليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر فى الشغب ولا فيما رفع اليه من ارادة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول فى القرآن قال هو كلام الله ولم يزد على ذلك و بعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق اليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه الى بغداد فنصب بها فى الجانب الشرقى وجعل فى أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى الا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به الى ناره وأليم عقابه وان أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه

وممن حمل الى الواثق فى هذه المحنة من علماء مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى أكبر أصحاب الشافعى الامام رضى الله عنه نمى الى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن فارسل الى والى مصر فى امتحانه فامتحنه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأى فيه. فقال له قل فيما بينى وبينك قال انه يقتدى بى مائة الف ولا يدرون المعنى. فلما امتنع أمر الواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات فى سجنه سنة ٢٣١

واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجا وانتقلت المسألة من الجد الى الهزل. دخل عبادة المضحك على الواثق فقال يا أمير المؤمنين

أعظم الله أجرك فى القرآن قال ويلك القرآن يموت قال ياأمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله ياأمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح اذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال قاتلك الله — أمسك .

وجىء الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبى دؤاد عن قوله فى القرآن فقال له الشيخ لم تنصفنى المسألة أنا أسألك قبل الجواب . هذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد من خلق القرآن شىء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أو جهلوه — فقال بل علموه قال فهل دعوا اليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا — قال بل سكتوا — قال فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت — فسكت ابن أبى دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر باطلاقه وقام وهو يقول هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسنا فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته

ويمكن القول بأن هذه المجالس التى تعقد للمناظرة رجاء الوصول الى الوفاق انما تقرر الخلاف وتؤكده لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شىء من الرياسة فى الدنيا وتاريخ المجامع والمجالس التى كان من شأنها البحث فى الامور الدينية شاهد بذلك

علوم الصناعات

كما كانت للمأمون جولة فى العلوم الدينية كانت له جولة فى العلوم الصناعية وقد كان أثره فى هذه أظهر من أثره فى تلك كما يتبين مما يأتى

كانت الامة العربية أمة أمية لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم الا قليلا كما بيناه فى خلاصة تاريخها فى الجزء الاول فلما جاءها الاسلام لم يكن لها مجال فى العلوم لانها كانت فى دور التكوين وذلك محتاج الى استعمال ماعندها من القوة والفكر فى سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم فى الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة الى الدين وكانت الحال على ذلك فى صدر الدولة الأموية الا أنه وجد من رجالهم فى أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التى كانت فيمن سبقهم من الامم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه فى ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة «الكيميا» فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة . ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم كما قدمنا ذلك فى تاريخ بنى أمية . ثم نقل ديوان الشام الى العربية فى زمن هشام ابن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية أقرب الى من قبلها فى السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر . فلما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس أكثر لأن دولتهم بالخراسانيين والموالى قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو الى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شيء

من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين وكان الذى قام بترجمة الكتب له طبيبه جورجس بن جبرائيل الذى كان طبيبا لبيمارستان جنديسابور ثم طلبه المنصور اليه سنة ١٤٨ ليعالجه فحظى عنده حظوة عظيمة وترجم له كتبا كثيرة من اليونانى الى العربى والبطريق قال فى طبقات الاطباء ان المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد الا أنه دون نقل حنين بن اسحاق وقد وجدت بنقله كتب كثيرة فى الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطى لبطليموس وكتاب اقليدس فى الهندسة وغير ذلك الا أن العناية لم تبذل كثيرا فى الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الامة.

فلما كان فى زمن هرون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له بترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها فى عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى فى الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الارزاق

لما ولى المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطا أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل فى هذا السبيل . حكى ابن النديم فى الفهرس أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره قال المأمون وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا ارسطاليس فسررت به وقلت أيها

الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن قال ما حسن فى العقل قلت ثم ماذا قال ما حسن فى الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال ثم لا ثم لا — وفى رواية أخرى قلت زدنى قال من نصحك فى الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد — قالوا فكان هذا المنام من أوكد الاسباب فى اخراج الكتب — واذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر اشغف المأمون بارسطاليس وتعاليمه .

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب الى ذلك بعد امتناع فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج (١) بن مطر وابن (٢) البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل وقيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلاد الروم

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب الى اللسان العربى ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن اسحاق وغيره الى بلد الروم فجاؤهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة

(١) قال فى طبقات الاطباء الحجاج بن مطر نقل للمأمون ومن نقله كتاب اقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى

(٢) قال فى الطبقات يحيى بن البطريق كان فى جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان لطينيا يعرف لغة الروم اليوم وكتابتها وهى الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة

والهندسة والموسيقى والارثماطيقى والطب . قال أبو سليمان المنطقى السجستانى ان بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم فى الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة . وقال ابن النديم فى موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا الى بلد الروم من أخرجها اليهم فأحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السنى فاظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل وتوفى محمد بن موسى سنة ٢٥٩ فى شهر ربيع الاول . ثم ذكر الكتب التى ألفوها . وقال ابن خلكان ومما اختصوا به فى ملة الاسلام وأخرجوه من القوة الى الفعل وان كان أرباب الارصاد المتقدمون على الاسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحدا من أهل هذه الملة تصدى له وفعله الاهم وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الاوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الارض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أى نقطة كانت من الارض وأدرنا الحبل على كرة الارض حتى انتهينا بالطرف الآخر الى ذلك الموضع من الارض والتقى طرفا الحبل فاذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل فاراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى فقال أريد أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا — فسألوا عن الاراضى المتساوية فى أى البلاد هى فقيل لهم صحراء سنجار فى غاية الاستواء وكذلك وطاآت الكوفة فاخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى أقوالهم ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا

الى سنجار وجاؤا الى الصحراء المذكورة فوقفوا فى موضع منها فاخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فى ذلك الموضع وتدا وربطوا فيه حبلا طويلا ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض من غير انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان فلما فرغ الحبل نصبوا فى الارض وتدا آخر وربطوا فيه حبلا طويلا ومشوا الى جهة الشمال أيضا كفعلهم الاول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الارض بالحبال فبلغ $\frac{٢}{٣}$ ٦٦ ميلا فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض $\frac{٢}{٣}$ ٦٦ ميلا ثم عادوا الى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الاول وشدوا فيه حبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التى استعملوها فى جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة فصح حسابهم وحققوا ماقصدوا من ذلك — وهذا اذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠° لان الفلك مقسوم باثنى عشر برجا كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك فى $\frac{٢}{٣}$٦٦ ميلا التى هى حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهى ٨٠٠٠ فرسخ (الميل $\frac{٢}{٣}$ ١٦٦٦ م والفرسخ ٥٠٠٠ م) وهذا محقق لا شك فيه فلما عاد بنوموسى الى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقا لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الاوائل طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر فسيرهم الى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ماحرره القدماء فى

ذلك . وممن كان ينقل لهم حنين بن اسحاق العبادى وكان فاضلا فى صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد فى جمع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبنى موسى ونقله فى غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠

وكان هناك كثير غير بنى شاكر يحذون حذوهم فى ذلك فكثرت الكتب المترجمة فى جميع العلوم الصناعية ولما نقلت الى العربية اشتغل بها الناس كثيرا علما وعملا ففسروا مغلقها وأصلحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتبا عظيمة فى هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن اسحاق الكندى ينتهى نسبه الى الاشعث بن قيس بن معديكرب ثم الى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جدا فى جميع العلوم ونقل فى طبقات الاطباء عن سليمان بن حسان أنه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم ولم يكن فى الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو ارسطوطاليس وله تواليف كثيرة فى فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالادب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص . وقال أبو معشر فى كتاب المذكرات لشاذان : حذاق التراجمة فى الاسلام أربعة حنين بن اسحاق ويعقوب بن اسحاق الكندى وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى وقد ذكر فهرس كتبه فى نحو خمس صفحات فى علوم شتى

وانما ذكرنا هذا لندل على أن الامة كانت فى استعداد تام لتلقى هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم

واشتغل بها المتعلمون فى بغداد حاضرة الخلافة وفى غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التى كانت توجه اليهم أحيانا خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الاكبر فى نفاق هذه العلوم

فالمأمون يعد فى الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التى وجدت فى الامة الاسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه فى ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فانهما وضعا الاساس وهو حذا حذوهم الا أنه فاقهم فى الاهتمام والعزم

الاحوال الخارجية

لم يكن بين المسلمين والروم حروب فى أول عهد المأمون الى سنة ٢١٥ وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم فى المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار الى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج الى طرسوس وهى الثغر الاسلامى ومن طرسوس دخل الى بلاد الروم فى منتصف جمادى الاولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه . ولما تم فتحه اشترى السبي بستة وخمسين الف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا — وكان قبل ذلك افتتح حصنا اسمه ماجدة فمن على أهله — ثم أرسل أشناس الى حصن سندس فاتاه برأسه — ووجه عجيفا وجعفر الخياط الى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع

وبعد ذلك شخص الى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوما من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ١٦٠٠ فاعاد الكرة على بلاد

الروم فنزل على أنطيفو فخرج أهلها على صلح وصار الى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه اسحاق فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيي بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع الى العسكر — ثم خرج المأمون الى كيسوم ثم الى دمشق ومنها خرج الى مصر فى ١٦ الحجة سنة ٢١٦ ثم عاد منها الى دمشق سنة ٢١٧ فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لولؤة مئة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفا فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيرا فى أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل الى لؤلؤة فاحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود اليه فارتحل توفيل قبل موافاتهم وخرج أهل لؤلؤة الى عجيف بالامان

وكاتب ملك الروم المأمون فى سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما

كتب ملك الروم الى المأمون : أما بعد فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا أن تدع لحظ يصل الى غيرك حظا تحوزه الى نفسك وفى علمك كاف عن اخبارك وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة راغبا فى فضيلة المهادنة لنضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فان أبيت فلا أدبّ لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول فانى لخائض اليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وان أفعل فبعد أن قدمت اليك المعذرة وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام

رد المأمون — أما بعد فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه

من المودعة وخاطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسارى و رفع القتل والقتال فلولا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة والاخذ بالحظ فى تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأى فى مستقبله الا فى اصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الامداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم احدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وان تركت ذلك ففى يقين المعاينة لقوتنا ما يغنى عن الابلاغ فى القول والاغراق فى الصفة والسلام على من اتبع الهدى

شخص المأمون الى الرقة سنة ٢١٨ وفى هذه السنة فى جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس الى أرض الروم وأمره بنزول الطوانة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلا فى ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا . ثم سار المأمون بعده الى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتى .

أخلاق المأمون

أول ما ظهر من حلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فانه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشئ حتى الفضل بن الربيع الذى أخذ

قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به الى الأمين وتركه بمرو مجردا عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه و كان أشد عليه من كل شئ ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لا يكون الا عن رضا وسجد المأمون شكرا لله على أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد لله قديما ما كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذى ألهمنى الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فعجبت لسعة حلمه . وقال زيد بن على بن الحسين جلس المأمون يوما للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه اذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لاحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التى أتمها على كما أتمها على أبوتى من قبلى أما ترون ذاك الذى فى صحن الدار (يعنى الفضل بن الربيع) كان فى أيام الرشيد وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لى عنده ولكنى كنت أداريه خوفا من سعايته وحذرا من أكاذيبه فكنت اذا سلمت عليه فرد على أظل لذلك فرحا وبه مبتهجا وكان صفوه الى المخلوع فحمله على أن أغراه بى ودعاه الى قتلى وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث اذا قال لم يطع واذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتى عنده أن وجه مع على بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا فى الفضة والحديد ليقيدنى به وذهب عنه قول الله تعالى « ومن بغى عليه لينصرنه الله » فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسى

وكان بالامس يقف على هـذا المنبر الذى بازائى مرة وعلى المنبر الغربى مرة فيزعم أنى المأفون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمـدا عليهما السلام .

وكان له فى العفو لذة لا يعادلها لذة حتى انه لما ظفر بعمه ابراهيم عفا عنه مع مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذى أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه الا ما كان منـه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهـل البشرود باسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سـيرتهم فأرسل اليهم الافشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب اليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك فى صفر سنة ٢١٧ وهى حادثة فى غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذى اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد دينارا دينارا ومن عـلى غيرهم من السبي

ومن مزايا المأمون أنه كان فى جدله ميالا الى الاقناع فـكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله فى ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله فى الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره فى المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل . أراد مرة أن ينتقص معاوية ابن أبى سفيان ويلعنه فقال له يحيى بن أكثم ان العامة لا تحتمل مثل هذا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وان كانت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على ماهم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق فان

ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير . فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشئ فى هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقى فى دفاترهم مسجلا

كان المأمون مع حلمه يعلم ماعليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذى ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من خيمهم قال يوما وفى مجلسه جماعة هاتوا فى عسكرنا من يطلب ماعندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده اما أن يقول فى عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ماأرى عند أحد منكم ما يبلغ ارادتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام فى رحل كل واحد منهم حولا مازاد على معرفته فكان مما حفظ عنه اذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس — تسبيح حميد الطوسى وصلاة قحطبة . وصوم النوشجانى . ووضوء بشر المريسى . وبناء مالك بن شاهى المساجد . وبكاء ابراهيم بن بريهة على المنبر . وجمع الحسن ابن قريش اليتامى . وقصص منجا وصدقة على بن الجنيد . وحملان اسحاق ابن ابراهيم فى السبيل . وصلاة ابن رجاء فى الضحى . وجمع على بن هشام القصاص — حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيرا من هذا — فحدث ابراهيم بن المهدى بهذا الحديث رجلا من أصحاب الاخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته الى اسحاق بن ابراهيم فى الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلا رجلا حتى لهو بها أعلم منهم بما فى منازلهم

قعد مرة للمظالم فقدم اليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان

فيهم نصرانى من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فامر سلما صاحب الحوائج أن يبطحه و يضربه عشرين درة وقال لسلم قل له تعود تصيح بى فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قل لابى عباد اقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة . فلا أدرى مم يعجب الانسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لانه هو الذى صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت

وكان مع هـذه الاخلاق أديبا يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ما أعجبه منه ثوابا فوق كل أمل . حدث عمارة بن عقيل قال أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مئة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت الا بادرنى الى قافيته فقال عمارة والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط فقال المأمون هكذا ينبغى أن يكون وقال عمارة قال لى عبد الله بن السمط علمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله انك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره . قال انى أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره تحرك له — قلت وما الذى أنشدته فقال

أضحى امام الهدى المأمون مشتغلا ... بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقلت ماصنعت شيئا وهل زدت على أن جعلته عجوزا فى محرابها فى يدها

سبحتها فمن القائم بامر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد .

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبته له راجت فى زمنه سوقه وكثر الشعراء والادباء كما كثر المغنون ونبغوا . وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأى أهل العراق

أما كرمه فمما سارت به الامثال فقد أربى على جميع خلفاء بنى العباس حتى على أبيه الذى كان يعطى عطاء من لا يخاف فقرا ولا يخشى اقلالا وحكايات المأمون في العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها الا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف فى القوم وسعة اليد وكثرة البذل

بنى المأمون سنة ٢١٠ ببوران بنت الحسن بن سهل فى فم الصلح واحتفل أبوها بامرها وعمل من الولائم والافراح ما لم يعهد مثله فى مصر من الامصار وانتهى أمره الى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك و بيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن فى العسكر من يشترى شيئا لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوما وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر

المأمون له عنـد انصرافه بعشرة آلاف الف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة . وهذا سرف عظيم سهل أمره الوارد الـكثير

وفاة المأمون

بينما كان المأمون ببلاد الروم فى آخر غزواته أصابته حمى وهو بالبُدَندون شمالى طرَسوس أصابته حمى لم تمهله كثيرا وفى ١٨ رجب سنة ٢١٨ أدركته منيته فحمل الى طرسوس ودفن بها وكانت سنه اذ توفى ٤٨ سنة

ولاية العهد

عهد المأمون وهو مريض الى أخيه أبى اسحاق بن الرشيد ولم يخطىء خطأ من قبله بالعهد الى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل فى الخلافة اذا طوقـكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فـكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعيـة العوام العوام فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ولا ينهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شىء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم الى دار ملـكك بالعراق . وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت)

٨ - المعتصم

هو أبو اسحاق محمد بن الرشيد بن المهدى بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان فى عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل اليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه. وفى اليوم الذى توفى فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة الى أن توفى بمدينة سامرا فى ١٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ (٤ فبراير سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام

وكان يعاصره فى الاندلس عبد الرحمن الثانى بن الحكم بن هشام رابع أمراء بنى أمية بالاندلس (٢٠٦ - ٢٣٨)

ويعاصره فى المغرب الاقصى من الادارسة محمد بن ادريس بن ادريس (٢١٣ - ٢٢١) ثم على بن محمد (٢٢١ - ٢٣٤).

ويعاصره فى أفريقية من الاغالبة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب (٢٠١ - ٢٢٣) ثم الاغلب بن زيادة الله (٢٢٣ - ٢٢٦) ثم محمد بن الاغلب بن زيادة الله (٢٢٦ - ٢٤٢)

ويعاصره فى اليمن محمد بن ابراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون (٢٠٣ - ٢٤٥)

ويعاصره فى خراسان الامير عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون (٢١٣ - ٢٣٠)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية توفيل بن ميخائيل (٨٢٩ - ٨٤٢) ويعاصره فى فرنسا لويز الاول الملقب باللاين (٨١٤ - ٨٤٠) ثم شارل الملقب بالاصلع (٨٤٠ - ٨٧٧)

الاحوال فى عهد المعتصم

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصدا بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق مالم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس الى بلادهم . وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة ٢١٨

وزراء المعتصم

الفضل بن مروان بن ماسرخس . كان رجلا نصرانيا من أهل البردان وكان متصلا برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقانى فلما مات يحيى صير الفضل فى موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التى بلغها والفضل كاتبه . لما خرج المعتصم مع المأمون فى غزوته الاخيرة كان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الامور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم اليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها اليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالامور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالامور ثقل عليه . كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل الى كذا وكذا من

المال فيقول ماعندى فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطينى هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف فى وجهه . وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه ابراهيم الهفتى كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لاأفلحت أبدا فلما ولى المعتصم أمر للهفتى بمال وأمر الفضل أن يعطيه اياه فلم يفعل - فبينا الهفتى يوما عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التى ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشى فى البستان ينظر اليه والى مافيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتى وكان رجلا مربوعا ذا كدنة والمعتصم رجلا معرقا خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتى فى المشى فاذا تقدم ولم يره التفت اليه فقال مالك لا تمشى يستعجله فى المشى فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له الهفتى مداعبا كنت أرانى أماشى خليفة ولم أكن أرانى أماشى فيجا والله لا أفلحت — فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقى من الفلاح شىء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتى أتحسب أنك أفلحت الآن انما لك من الخلافة الاسم والله ما يجاوز أمرك أذنك وانما الخليفة الفضل بن مروان الذى ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أى أمر لى لا ينفذ فقال الهفتى أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه فاول ما فعله أن جعل عليه زماما فى نفقات الخاصة وهو أحمد بن عمار الخراسانى وزماما فى الخراج وجميع الاعمال وهو نصر بن منصور . ثم زاد الامر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ماجرى على أيديهم أى تقديم الحساب عما وصل اليهم من المال وعما صرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وأن يحمل الى منزله ببغداد

ثم نفى الى قرية فى طريق الموصل يقال لها السن و بقى كذلك حياة المعتصم قال الصولى فى أخبار الوزراء ان المعتصم أخذ من بيته لما نكبه الف الف دينار وأخذ أثاثا وآنية بالف الف دينار

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فان اقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهو مدبر فان ادباره يكفيك أمره . واستمرت حياة الفضل بن مروان الى سنة ٢٥٠

استوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراسانى الذى تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية . ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان فى الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم ما الكلأ فقال لا أدرى . فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال أبصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فادخلوه اليه فقال له ما الكلأ — فقال الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطبا فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش وشرع فى تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات . كان جده أبان رجلا قرويا من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه الى بغداد فعرف محمد به نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظا وافرا حتى قيل ان أبا عثمان المازنى لما قدم بغداد فى أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى علم النحو فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا الى هذا

الفتى الكاتب (يعنى ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه أبو عثمان ويوقعهم عليه . وكان محمد فى أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التى شرحناها فى تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيرا الى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتى

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعرا ظريفا عده دعبل بن على فى طبقات الشعراء وذكره أبو عبد الله هارون بن المنجم فى كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله فى موت أم ابنه ولابنه ثمانى سنوات

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجيبه بلابل قلب دائم الخفقان
فهبنى أطقت الصبر عنها لاننى جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحترى بقصيدة مطلعها

بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفا ما منحه من البلاغة

لتفننت فى الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ماشك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يُخلقه عوده على المستعيد

ماأعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى عن أغانى مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعقود
ومعان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرول ولبيد
حزنَ مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادركـ ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل البيـ ـض اذا رحن فى الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد يا أبا جعفر بمجد جديد
يئس الحاسدون منك وما مجـ ـدك مما يرجوه ظن الحسود
واذا استطرفت سيادة قوم بنت بالسودد الطريف التليد
وذووالفضل مجمعون على فضـ ـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليد

والذى كان يعاب عليه شدته فى معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم فى الاعمال وكان اذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمنى قال الرحمة خور فى الطبيعة

أحمد بن أبى دؤاد الايادى — كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره فى عداد الوزراء

أصل بيته فيما يقال من احدى قرى قنسرين وكان أبوه يتجر الى الشام أما هو فولد بالبصرة سنة ١٦٠ ونشأ بها فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج بن العلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزال كبير المعتزلة ومقدمهم فمال أحمد من أجل ذلك الى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس

القاضى يحيى بن أكثم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد فى هؤلاء المختارين فكان المأمون اذا شرع أحمد فى الكلام ينظر اليه ويتفهم مايقول ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائما ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جدا وخف على قلبه حتى قال لاخيه المعتصم فى وصيته (وأبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك وأشركه فى المشورة فى كل أمرك فانه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا الا برأيه فكان له فى حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد حتى قال ازون بن اسمعيل مارأيت أحدا قط أطوع لاحد من المعتصم لابن أبى دؤاد وكان يسأل الشئ اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهله وفى الثغور وفى الحرمين وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب فيجيبه الى كل ما يريد ولقد كلمه يوما فى مقدار الف الف ليحفر بها نهرا فى أقاصى خراسان فقال المعتصم وما على من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يسألك عن النظر فى أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين ابن أبى دؤاد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله

كان ابن أبى دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربى حتى عرف بالمروءة وكان يحمل فى سبيلها مالا يحمله أحد قال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي ابن أبى دؤاد روح كله من قرنه الى قدمه . ومن طريف

نوادره فى المروءة أن الافشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية وقتل فاخذه وأحضر السياف لقتله وبلغ الخبر ابن أبى دؤاد فخاف اذا هو ذهب الى المعتصم وكلمه فى شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فورا مع من حضره من العدول ودخل على الافشين وقد جىء بأبى دلف ليقتل فوقف وقال انى رسول أمير المؤمنين اليك وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثا حتى تسلمه الى ثم التفت الى العدول وقال اشهدوا أنى أديت اليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حى معافى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الافشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبى دؤاد الى المعتصم من وقته فقال له يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خير خيرا منها وانى لارجو لك الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الافشين على ما كان عزم عليه .

وكان وجود ابن أبى دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لانه شجاع شديد عجول فكان اذا أسرع اليه الغضب هدأ ابن أبى دؤاد من حدته وأراه وجه الاناة والعفو فلا يسعه الأن يسير فى سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه — غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وأشخصه من ولايته لعجز لحقه فى مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبى دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضى القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد الله جلست فى غير مجلسك فقال ما ينبغى لى أن أجلس

الا دون مجلسي هذا فقال له وكيف قال لان الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع — فقال المعتصم ارجع الى مجلسك قال مشفعا أو غير مشفع قال بل مشفعا فارتفع الى مجلسه ثم قال ان الناس ما يعلمون رضاء أمير المؤمنين ان لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لابد أن يقبضوها وان أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وان الناس ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله أحمد بن أبي دؤاد . وكان في ابن أبي دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئا من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لغلمان الاتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم.

وكان ابن أبي دؤاد مع ذلك شاعرا أديبا مجيدا فصيحا بليغا ذكره دعبل في طبقات الشعراء ومن مأثور قوله ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم العلماء وولاة العدل والاخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ومن استخف بالاخوان أهلك مروءته ولابي تمام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التي مطلعها

سقى عهد الحمى سيل العهاد　　　وروض حاضر منه وباد

يقول فيها :

لقد أفنت مساوى كل دهر　　　محاسن أحمد بن أبي دؤاد

متى تحلل به تحلل جنابا　　　رضيعا للسوارى والغوادى

ترشح نعمة الايام فيه　　　وتقسم منه أرزاق العباد

وما اشتبهت طريق المجد الا | هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت فى الآفاق الا | ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والامانى | وان قلقت ركابى فى البلاد
معاد البعث معروف ولكن | ندى كفيك فى الدنيا معادى

العلويون فى عهد المعتصم

لاول عهده توفى محمد الجواد بن على الرضا تاسع أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وكانت وفاته سنة ٢٢٠ وسنه ٢٥ سنة وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت الى قصر عمها المعتصم فتولى الامامية بعده ابنه أبو الحسن على الهادى وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين ابن على . كان مقيما بالكوفة ثم خرج منها الى الطالقان من خراسان يدعو الى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع اليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل الى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به الى عبد الله ابن طاهر فأرسل به الى المعتصم فحبس بسامرا سنة ٢١٩ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد الى امامته كثيرون من الزيدية ومنهم خلق كثير يزعمون أنه لم يمت وأنه حى يرزق وأنه يخرج فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وأنه مهدى هذه الامة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان

والديلم وكثير من كور خراسان وبقى ذلك الاعتقاد حتى سنة ٣٣٢ كما قال المسعودى فى مروج الذهب

الجيش

قدمنا ما كان فى عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الامة العربية فى جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الاحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه فى ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل الى الشجعان . رأى أن من ببغداد من جنود الابناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى ما للاتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكوّن منهم جيشا يستعز به على هؤلاء الابناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان الاتراك وأحضر منهم عددا عظيما فوق ما كان منهم فى عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده الا من كان من الاتراك أو الابناء الا أنه اصطنع قوما من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والاشروسنية أهل أشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجما جفاة يركبون الدواب فيتراكضون فى طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الابناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الاتراك ذلك الى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الاتراك فى وسط بغداد وبجانب جنود الابناء خطر عليهم فكان ذلك سببا لتفكيره فى اختطاط حاضرة جديدة له وهذا الجيش الجديد الذى أعجب به فاختطت سامرا

وكان المعتصم يلبس هـذه الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الاسلامية وسنذكر بعضهم .

(١) الافشين حيدر بن كاوس وهو تركى من أشروسنة « كورة من بلاد ما وراء النهر شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والصغانيان وغيرهما ومدينتها التى يسكنها الولاة بنجكث »

كان حيدر فى حاشية المعتصم فى حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالافشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الاعمال وكان المعتصم واليا على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لازالة الاضطراب فى برقة ومصر فنجح فيهما . ولما استخلف المعتصم كان الافشين فى مقدمة قواده فعين سنة ٢٢٠ لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الاعمال واحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه . ولما أمره المعتصم بالعود الى سامرا كان يوجه اليه كل يوم من حين فصل من برزند الى أن وافى سامرا فرسا وخلعة . ولما حضر توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين الف الف درهم منها عشرة آلاف الف صلة وعشرة آلاف الف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند . ولما غزا المعتصم عمورية كان قائدا لاحدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم وهو الذى تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده . كل ذلك الاعظام والاجلال جعل الافشين يمنى نفسه بالملك والاستقلال فى بلاده أشروسنة يوما ما وأول ما عرف ذلك منه أنه كان وهـو يحارب بابك لا يأتيه

هدية ولا مال الا وجه به الى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب الى المعتصم بخبره فيكتب المعتصم الى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الافشين من الهدايا الى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله. كان الافشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الالف فما فوقه من الدنانير فى وسطه فاخبر عبد الله بذلك . فبينما هو فى يوم من الايام وقد نزلت رسل الافشين نيسابور معهم الهدايا وجه اليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد فى أواسطهم همايين فأخذها منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الافشين وأمواله فقال كذبتم لو أراد الافشين أخى أن يرسل بهذه الاموال لكتب الى يعلمنى به لابذرقه « أحرسه » لان هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب الى الافشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال الى أشروسنة ولم تكتب الى تعلمنى لا بذرقة فان كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذى يوجهه الي أمير المؤمنين فى كل سنة وان كان المال لك كما زعم القوم فاذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته اليك وان يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحق بهذا المال وانما دفعته الى الجند لانى أريد أن أوجههم الى بلاد الترك . فكتب اليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله اطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر

رأى الافشين أنه لا يتم له أمر ما دام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال . كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مازيار بن قارن بن وندا هرمز وكان منافرا

لآل طاهر لايحمل اليهم الخراج ويحمله الى المعتصم فكان اذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلا من قبله فيستوفيه ثم يسلمه الى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده الى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة و بلغت حدها الاقصى فأراد الافشين انتهاز هذه الفرصة فكتب الى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم وعده امارة خراسان وأراد الافشين بذلك أن يخالف مازيار فيولى المعتصم الافشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان . دعا ذلك مازيار الى اظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان . بلغ ذلك عبد الله بن طاهر فوجه اليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم اليه جيشا كثيفا يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن ابراهيم بن مصعب فى جمع كثيف وضم اليه الحسن بن قارن الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند الى مدينة الرى ليدخل طبرستان من ناحية الرى — ولم ينتدب الافشين لشىء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار — فرأى أن يستأمن الى الحسن بن الحسين فاستأمن اليه هو وأخوه قوهيار فأمر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته الى محمد بن ابراهيم فحملهم الى المعتصم بسامرا

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الافشين واطلع على الكتب التى كان أرسلها أخو الافشين الى مازيار وعلم الافشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقدوصل شىء من علم ذلك الى قائد من القواد الاشروسنية فاخبر به المعتصم فأمر بحضور الافشين ولما حضر أخذ سواره

وحبسه ثم أحضره فى مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبدالملك الزيات فثبت من التحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكايد للوصول الى ملك بلاده وأن أهل اشروسنة كانوا يخاطبونه باله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكاتب المازيار وشهد المازيار ان أخاه خاش كتب الى قوهيار أخى مازيار (انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيرى وغيرك وغير بابك فاما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فابى حمقه الا أن دلاه فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة المغاربة والعرب والاتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) انما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعنى الاتراك) فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين الى مالم يزل عليه (أيام العجم) — ولما تبين أمره قال القاضى أحمد بن أبى دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يابغا فأعيد الى محبسه حتى مات و بعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته

(٢) ايتاخ كان غلاما خزريا لسلام الابرش طباخا فاشتراه منه المعتصم سنة ١٩٩ وكان لايتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع اسحاق بن ابراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل اسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس وولاه المعتصم قيادة احدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم الى عمورية وقد استمر ايتاخ على

منصبه وزعامته مدة الواثق وقتل لاول عهد المتوكل سنة ٢٣٥ . ففي سنة ١٩٩ اشترى بالمال وفى عهد الواثق كانت المملكة فى يده فكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة — وما الذى بقى بعد هذا

(٣) أشناس غلام تركى اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان فى غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥ بأن أجلسه على كرسى وتوجه ووشحه كما فعل بالافشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الافشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر . وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى انه فى سنة ٢٢٨ توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل فى عظمته حتى توفى سنة ٢٣٠

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسه ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم

كل هؤلاء قواد من الاتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون . ومع اعتزار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولاسيما انه ليس لاكثرهم نسب معروف فقد حدث اسحاق بن ابراهيم أن المعتصم قال له يا اسحاق فى قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وانما بسطتك فى هذا الوقت لأفشيه لك — نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون

طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت فانت والله الذي لا يعتاض منك السلطان أبدا وأخوك محمد بن ابراهيم وأين مثل محمد وأما أنا فاصطنعت الافشين فقد رأيت الى ما صار اليه أمره وأشناس ففشل أيه وايتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه — فقال اسحاق جعلنى الله فداك أجيب على أمان من غضبك قال قل — قلت ياأمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لها — فقال يااسحاق لمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب

المعتصم وحده يتحمل أكثر تبعة ماحل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وماحل بالامة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها. لم يكن الرجل بعيد النظر فى العواقب وانما كان شجاعا جسورا يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحترمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدوله وبقاؤها أم لا وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها

ومن النتائج التى سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الامة ثورة أبى حرب المبرقع اليمانى بفلسطين . وذلك أن بعض الجند أراد النزول فى داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفا فى الدولة العربية قبل ذلك وكان فى الدار اما زوجة أبى حرب واما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب الى منزله شكت اليه ما فعل بها وأرته الاثر فاشتمل سيفه ومشى الى

الجندى وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعا كيلا يعرف فصار الى جبل من جبال الاردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذى أوى اليه متبرقعا فيراه الرائى فيأتيه فيذكره ويحرضه على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتى الى الناس ويعيبه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثى أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعا فى أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث اليه رجاء بن أيوب الحضارى فى زهاء الف رجل من الجند فلما صار اليه وجده فى عالم من الناس زهاء مئة الف فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الارضين وحراثتهم وانصرف من كان معه من الحراثين الى الحراثة وأرباب الارضين الى أرضيهم وبقى أبو حرب فى زهاء الف أو الفين فناجزه رجاء الحرب فظفر به رجاء وأسره وجل من معه ثم صار به الى المعتصم أسيرا

الخراج

كما يمتاز عصر المأمون بالثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذى أورده قدامة بن جعفر في كتاب الخراج له عن مقدار الجباية فى عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم أو الدنانير
سواد العراق	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠ درهم
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠
اصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠
حلوان	٩ ٠٠٠ ٠٠٠
الماهين	٩ ٨٠٠ ٠٠٠
همذان	١ ٧٠٠ ٠٠٠
ماسبذان	١ ٢٠٠ ٠٠٠
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠
قم وقاشان	٣ ٠٠٠ ٠٠٠
أذربيجان	٤ ٥٠٠ ٠٠٠
الرى ودنباوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠
قزوين وزنجان وأبهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠
	٢٧٢ ٢٦٥ ٦٥٠

ما قبله	٢٧٢ ٢٦٥ ٦٥٠
قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠
جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠
تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
الموصل وماإليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠
قردى و بازبدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠
ارزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
طرون	١٠٠ ٠٠٠
آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
ديار مصر	٦٠٠ ٠٠٠
أعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠
المجموع	٣١٤ ٢٨١ ٣٥٠

قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	»
« دمشق	١١٠ ٠٠٠	»
« الاردن	١٠٩ ٠٠٠	»
	٧٩٧ ٠٠٠	

ماقبله	٧٩٧ ٠٠٠	
جند فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠	دينار
مصر والاسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠	«
الحرمين	١٠٠ ٠٠٠	«
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠	«
اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠	«
عمان	٣٠٠ ٠٠٠	«
المجموع	٥ ١٠٢ ٠٠٠	دينار

وذلك قريب مما كان فى حياة المأمون لان الاحوال لم تتغير تغيراً يذكر

العلاقات الخارجية

قدمنا أن الذى كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص الملائمة لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهرا فحدث أنه لما كان الافشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك الى ملك الروم يقول ان ملك العرب قد وجه عظم عساكره الى ولم يبق على بابه أحد فان أردت الخروج اليه فليس فى وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم اذا تحرك ينكشف عنه بعض ماهو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج فى مئة الف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم اسحاق بن ابراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك فى حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبي النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره الى ملطية فاغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل

أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم . بلغت تلك الاخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج الا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مددا لاهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس الى قراهم واطمأنوا

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أى بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل عمورية وهى مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازا لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا — على المقدمة أشناس ويتلوه محمد بن ابراهيم المصعبى وعلى الميمنة ايتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الافشين أن يمضى فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوما أمره أن يكون وصوله فيه الى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لاشناس الذى أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس. ولما وصل اشناس الى مرج الاسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف لانه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس اشناس وجنده فاقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الافشين فأرسل بخبر ذلك الى المعتصم فبعث الادلاء مسرعين يخبرون الافشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذرا من مواقعة ملك الروم له قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء الى الافشين فتم على

مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الافشين أول النهار ثم أعاد الكرة فى الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود . أما عسكر أشناس والمعتصم فانهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حربا لتفرق الجنود التى كان الملك قد جمعها لمحاربة المعتصم ثم ورد الافشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس فى الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الافشين وهو الميسرة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الاقسام على تعبئة وسارت هذه الاقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الافشين فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرهم الجيش المعتصمى وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الاسوار لاتلافها حتى سقط منها جانب فى ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال فى ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمرا حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة . وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه فى زبطرة وملطية . وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم الى طرسوس وكانت اناخته على عمورية فى ٦ رمضان سنة ٢٢٣ وقفل عنها بعد ٥٥ يوما

ومن غريب الامور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الاتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه تآمروا

على ذلك وهم فى وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم واغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فاخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الاذى وكان الذى تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله اليها يوما مشهودا وامتدحه أبو تمام حبيب ابن أوس بقصيدته المشهورة التى أولها

السيف أصدق أنباء من الكتب — فى حده الحد بين الجد واللعب

يقول فيها

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به — نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له — وتبرز الارض فى أثوابها القشب
يايوم وقعة عمورية انصرفت — عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الاسلام فى صعد — والمشركين ودار الشرك فى صبب
أمٌّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا — فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها — كسرى وصدت صدودا عن أبى كرب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد — شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة — ولا ترقت اليها همة النوب
حتى اذا مخض الله السنين لها — مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة — منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفال نحسا يوم أنقرة — اذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالامس قد خربت — كان الخراب لها أعدى من الجرب

كم بين حيطانها من فارس بطل — قانى الذوائب من آنى دم سرب

بسنة السيف والخطى من دمه — لا سنة الدين والاسلام مختضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها — للنار يوما ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى — يقله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الضحى رغبت — عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة — وظلمة من دخان فى ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت — والشمس واجبة فى ذا ولم تجب

تصرح الدهر تصريح الغمام لها — عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول فى ختامها

خليفة الله جازى الله سعيك عن — جرثومة الدين والاسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها — تنال الا على جسر من التعب

ان كان بين صروف الدهر من رحم — موصولة أو ذمام غير مقتضب

فبين أيامك اللاتى نصرت بها — وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بنى الاصفر المصعر كاسمهم — صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والاقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول ان فيها أمورا محمودة فأولها عمران الارض التى يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولم

يكن للمعتصم نفوذ فى العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وانما كان همه الجيش وتحسينه .

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وها نحن أولاء نقص شيئا من أمرها .

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الاتراك قال لأحد كتابه انى أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلمانى فاذا ابتعت لى موضع سامرا كنت فوقهم فان رابنى رائب أتيتهم فى البر والبحر حتى آتى عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا (١٥٠ كيلو مترا) فابتاع ديرا كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستانا كان فى جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم فى آخر سنة ٢٢٠ حتى نزل القاطول وهو نهر عند سامرا كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصرا فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء سنة ٢٢١ فبنى دارا له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى بها مسجدا جامعا فى طرف الاسواق وأنزل أشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز . ومازال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الاسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان فى عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم فى أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧ فأصيب عقب ذلك بعلته التى قضت عليه يوم الخميس لثمانى ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال

قد قلت اذ غيبوك واصطفقت   عليك أيد بالتراب والطين

اذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين
لاجبر الله أمة فقدت مثلك الا بمثل هارون

ولاية العهد

ولى المعتصم عهده ابنه هرون ولم يجعل معه فى الولاية غيره

٩ — الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦ بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده فى يوم الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة الى أن توفى لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و ١٥ يوما وسنه ٣٦ سنة

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه الا فى مملكة الروم بالقسطنطينية فان توفيل مات فى السنة التى توفى فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان اذ ذاك صبيا فكانت أمه تدورة تقوم مقامه وفى خراسان حيث توفى عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠ وولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله

وزراء الواثق

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق

متغيرا عليه في حياة أبيه حتى حلف انه لينكبنه اذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لانه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد أبيه

الجيش

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت في حياة أبيه الا أن قدم المماليك التي اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذي توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان سنة ٢٢٨ . وقد قام قواد الاتراك بأعظم الاعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التي كانت حمى مايستطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذي كان هناك وكيف أزيل

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عددا وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهي حرة بني سليم فاجترؤا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا اذا وردوا سوقا من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤا ثم ترقى بهم الأمر الى أن أوقعوا بالجار بناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمي فوجه اليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبري وكان الواثق أرسله مسلحة للمدينة في ٢٠٠ من الشاكرية لئلا يتطرقها الاعراب فتوجه اليهم حماد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو

سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحدا أن يسلك تلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه اليهم الواثق بغا الكبير فى الشاكرية والاتراك والمغاربة فشخص الى حرة بنى سليم وعلى مقدمته طردوش التركى فلقى بنى سليم بقراهم وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا الى الامان على حكم الواثق فاتوه واجتمعوا اليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالاسرى الى المدينة فى ذى القعدة سنة ٢٣٠ فحبسهم بها وشخص الى مكة حاجا . ولما انقضى الموسم انصرف الى ذات عرق ووجه الى بنى هلال من عرض عليهم مثل الذى عرض على بنى سليم فاقبلوا فاخذ من مردتهم وعتاتهم نحوا من ٣٠٠ رجل وخلى سائرهم ثم انصرف الى المدينة وجعل المحبوسين من بنى هلال مع اخوانهم من سليم وجعهم جميعا فى دار يزيد بن معاوية فى الاغلال والاقياد وعدتهم نحو ١٣٠٠ رجل وسار هو الى بنى مرة . أما المحبوسون فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاؤهم واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج فباتوا محصورين وفى الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الاعراب فى أزقة المدينة ممن دخل يمتار أو يزور . كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجدا شديدا

أما ما فعله ببنى مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فانه لما قاربهم أرسل اليهم رجلا فزاريا يعرض عليهم الامان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزارى حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن

اليه الا القليل وهرب الباقون الى موضع من البلقاء من عمل دمشق . ثم صار اليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا اليه استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص الى ضرية لطلب بنى كلاب ووجه اليهم رسله فاجتمع اليه منهم نحو ٣٠٠٠ رجل فاحتبس من أهل الفساد نحوا من ١٣٠٠ رجل ثم قدم بهم المدينة فى رمضان سنة ٢٣١ فحبسهم بها ثم شخص الى مكة حاجا ورجع الى المدينة بعد حجه فأرسل الى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا فى البلاد فوجه فى طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد

وفى سنة ٢٣٢ أمره الواثق أن يذهب الى غزوة بنى نمير لما كان من عيثهم وفسادهم فى الارض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفا وخمسين رجلا وأسر نحوا من ٤٠ ثم سار الى قرية لبنى تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتتابع الى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم الى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون الى حربه فسار بغا اليهم من مرأة فى أول صفر سنة ٢٣٢ حتى دخل نخيله وأرسل اليهم أن ائتونى فاحتملت بنو ضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله باهلة فأرسل اليهم سرية لم تدركهم ثم انه سار اليهم حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الابان و بطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم الى الرجوع والى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يا محمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينك العبر . ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد

جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصودا وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو ٢٠٠ نفس لتغير على خيل لهم علم وجودها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على شرف الانكسار اذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذى وجهت اليه فى ظهور بنى نمير فنفخوا فى صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم رجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هربا على ظهور الخيل . وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم اياه فصاروا اليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة فى ذى القعدة سنة ٢٣٢ وأرسل الى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله بالمدينة من بنى كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعا الى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعا نحو ٢٢٠٠ رجل .

نكبة الكتاب فى عهد الواثق

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذى من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له أحدهم ان سبب ذلك ماعلمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا فى انفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها ومنهم رجل يقال له أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين الف درهم فمطلوه بها

فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبى ربيعة

وعدت هند وما كانت تعد — ليت هندا أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة — انما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد أجل والله انما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد فى أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدى انما العاجز من لا يستبد وأخذ فى ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن انهم اختانوه مما عهد اليهم حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم

أحمد بن اسرائيل	٨ ٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب ايتاخ	٤٠٠ ٠٠٠	»
الحسن بن وهب	١٤ ٠٠٠	»
أحمد بن الخصيب وكتابه	١ ٠٠٠ ٠٠٠	»
ابراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠ ٠٠٠	»
نجاح	٦٠ ٠٠٠	»
أبو الوزير	١٤٠ ٠٠٠	»
	١ ٧٢٢ ٠٠٠	

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم

وكانت العمال تسرع اليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة اذ لم يكن هناك دقة فى المحاسبات فاذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة فى وقت قريب وتلك الثروة لاتنوم بها أرزاقه التى يتقاضاها حكم الخليفة قطعا أنه خائن ولا يجد أمامه الا تلك المصادرة التى لانظام لها .

العلاقات الخارجية — الفداء بين المسلمين والروم

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر احدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى وكثيرا ما يكون فى يد احدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان فى عهد الرشيد على نهر اللامس قريبا من طرسوس فودى فيه بثلاثة آلاف وسبعمائه أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله فى عهده أيضا فودى فيه بالفين وخمسين

وقد كان الفداء الثالث فى عهد الواثق سنة ٢٣١ أرسل ملك الروم الى الواثق رسلا يسألونه أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عددا كبيرا وقد تقابل الفريقان فى يوم عاشوراء سنة ٢٣١ على نهر اللامس وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠ منهم ٦٠٠ نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو ٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيرا أو كبيرا وقد عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا فكان المسلمون يرسلون الرومى على جسرهم ويرسل الروم المسلم على

جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل فى يده ١٠٠ نفس ليكون له عليهم الفضل استظهارا

ومن غريب ماحصل فى هـذا الفداء أن أحمد بن أبى دؤاد القاضى أرسل مندوبا من قبله يمتحن الاسرى حتى لايفدى منهم من لايقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل الى نهايته

صفات الواثق

كان الواثق كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعطفا على أهل بيته متفقدا لرعيته وكان محبا للنظر مكرما لأهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع فكانت سيرته فى ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلا حادا أكثر مما كانت فى عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم كان يتكاف ذلك لمكان وصية أخيه

وفاة الواثق

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته فى ٦ ذى الحجة سنة ٢٣٢ وسنه ٣٦ سنة وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل . ولم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافة فخلافة من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة فى الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعى الترف المضنى

١٠ - المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولد فى شوال سنة ٢٠٦ بفم الصلح ولم يكن بالمرضى عنه فى حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين هما عمر بن فرج الرُّخجى ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان باخباره فى كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسناء وكانت صكاك رزقه لاتختم له الا بعناء حتى ان عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به فى صحن المسجد الذى كان عمر يجلس فيه وكان الذى يصلح من شأنه عند الواثق أحمد ابن أبى دؤاد

ولما توفى الواثق ولم يكن عهد الى أحد اجتمع كبراء الدولة أحمد بن أبى دؤاد القاضى ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكاتبان وايتاخ ووصيف من قواد الأتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له الا أنهم لما جاؤا به وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة ثم أشار ابن أبى دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه وأحضروه فألبسه أحمد بن أبى دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلك كله فى اليوم الذى توفى فيه الواثق وهو ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢

(١١ أغسطس سنة ٨٤٧) واستمر خليفة الى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبرسنة ٨٦١) فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنه اذ قتل ٤١ سنة

وكان يعاصره فى بلاد الاندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣)

ويعاصره فى بلاد المغرب من الادارسة على بن محمد بن ادريس الثانى (٢٢١ ـ ٢٣٤) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤ ـ)

ويعاصره فى أفريقية من الاغالبة محمد بن الاغلب بن ابراهيم (٢٢٦ـ٢٤٢) ثم أحمد بن محمد بن الاغلب (٢٤٢ ـ ٢٤٩)

ويعاصره فى بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبد الله بن زياد (٢٠٤ ـ ٢٤٥) ثم ابراهيم بن محمد (٢٤٥ ـ ٢٨٩)

ويعاصره فى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٣٠ ـ ٢٤٨)

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير

ويعاصره فى فرنسا شارل الاصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧)

وزراء الدولة

كان الوزير الأول لأول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذى كان وزيرا لأخيه ولأبيه الاأن المتوكل كان منحرفا عنه لما كان يفعله معه فى حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك أنه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففي سابع صفر سنة ٢٣٣ أمر فقبض

عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت أما ما ناله من المكروه فى نفسه فهو أعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب . الى هـذا الحد وصل ضعف الوازع الدينى عند هؤلاء القوم — ارجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فاشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به فى عمل — الرجل خان فيما عهد اليه من الامانات فاقصى عقوبته أن يصادر فى أمواله — الرجل قتل نفسا بدون حق فاقصى عقوبته أن يقتل فلم هـذا التعذيب الذى سطره المؤرخون أليس ذلك دليلا على أن شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذى نهى أشد النهى عن التعذيب والمثلة أليس ذلك دليلا على أن صوت العلماء لا يظهر الا فى الأمور النظرية المحضة التى لا يترتب عليها عمل ولا أثر فى الحياة أما ما تكون آثاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وازهاق نفوسهم فلا تكاد تسمع لهم ركزا أين هذا مما كان فى عهد عمر بن الخطاب الذى كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير

وكان مبلغ ما قبض له مع قيمة موجوداته ٩٠٠٠٠ دينار وبين القبض عليها ووفاته أحد وأربعون يوما

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجى وهو الكاتب الذى رمى بصك المتوكل فى صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه وصودرت أملاكه وكان مقدار ما أخذ منه ومن أخيه محمد ابن فرج ٢٧٤٠٠٠ دينار و ١٥٠٠٠ درهم سوى القصر والامتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملا كرت مرارا ثم صالحوه بعد ذلك على

أن يدفع ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم على أن ترد عليه ضياعه بالاهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير أحمد بن خالد الذى كان فى حياة الواثق زماما على عمر بن فرج الرخجى فى ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير واستمر كاتبا له زمنا قليلا فانه فى ذى الحجة من سنة ٢٣٣ غضب عليه وأمر بمحاسبته فحمل نحوا من ٦٠٠٠٠ دينار وحمل بدوردراهم وحليا وأخذ له من متاع مصر ٦٢ سفطا و٣٢ غلاما وفرشا كثيرا وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال قدرا كثيرا

وبعد أبى الوزير استوزر محمد بن الفضل الجرجرائى منسوب الى جرجرايا (وهى بلد من أعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى) وكان الجرجرائى من أهل الفضل والأدب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية انه كان عالما بالغناء مشتهرا به واستمر على وزارته الى سنة ٢٣٦ وفيها صرفه عن العمل لأنه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثا أستوزره فمن أجل ذلك صرفه

اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبقى وزيرا للمتوكل الى أن مات وكان حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه وقد حصل فى وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجانهم الاموال لأنفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط فى الادارة المالية . كان نجاح ابن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشى

الجانب نافذ الكلمة وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى الى الوزير. احتاج المتوكل فى سنة ٢٤٥ الى المال لبناء القصور التى أراد تأسيسها بسامرا. فقال له نجاح أسمى لك قوما تدفعهم الى حتى أستخرج لك منهم من الأموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحوا من عشرين رجلا موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله بن يحيي الوزير وأخواه وغيرهم من العمال فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر الى غدا — وناظر الوزير المتوكل فى ذلك فقال له ياأمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتبا ولا قائدا ولا عاملا الا أوقع بهم فمن يقوم بالاعمال يا أمير المؤمنين وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما ان دخل نجاح الى أمير المؤمنين دفعكما اليه فقتلكما وأخذ ماتملكان من المال ولكن اكتبا الى أمير المؤمنين تتقبلان به فيها بألفى ألف دينار ففعلا وأوصل الوزير رقعتهما الى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحا فضمنا ذلك ودفع اليهما نجاحا فأخذاه وانتقما منه شر انتقام أما فى المال فأخذا من نجاح وابنه نحو ١٤٠٠٠٠ دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به أما كاتبه اسحاق بن سعد الذى كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم ٥١٠٠٠ دينار ولم ذلك قال المتوكل انه أخذ منه أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين دينارا حتى أطلق أرازق فخذوا الكل دينار الفا وزيادة الف فضلا كما أخذ فضلا فحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق

حتى أدى تعجيل ١٧٠٠٠ دينار وأخذ منه كفلاء بالباقى . وأما نفس نجاح فقد فاتت تحت الضرب والتعذيب

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع الى عبيد الله بن يحيى الوزير ثم توفى موسى بن عبد الملك فضم ديوان الخراج الى الوزير أيضا

من أغرب ما فى هذا التاريخ أن يرتشى العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما الظن بغيره من أصحاب الارزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الارزاق ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع الى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة فى الزمن القليل والعمال يعرف بعضهم بعضا فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال فاذا بلغ خليفته شيئا من ذلك هاج أطماعه فيعمد الى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله (وماظالم الا سيبلى بظالم) وتلك أمور تعم الفساد فى جسم الدولة

أحمد بن أبى دؤاد — هو الرجل الموثوق به فى عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضى القضاة فى زمنهما والذى كان يعطف على المتوكل فى عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولى المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضى القضاة وعظيم الدولة . وفى سنة ٢٣٣ فلج فعجز عن العمل فكان ابنه ابو الوليد يقوم مقامه فى القضاء وولاية المظالم الا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد ابن أبى دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد الى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم . وأمر بالتوكيل

على ضياع أحمد بن أبى دؤاد لخمس بقين من صفر سنة ٢٣٧ وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد فى ديوان الخراج وحبس اخوته عند عبيد الله بن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد ١٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠ دينار ثم صولح بعد ذلك على ١٦٠٠٠٠٠ درهم وأشهد عليهم جميعا ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر سنة ٢٣٩ مات محمد بن أحمد بن أبى دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوما توفى أبوه أحمد وهم على تلك الحال

العلويون

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة على بن أبى طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف فى العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة على وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض على فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر فى سنة ٢٣٧ بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من اتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به الى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير اليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه.

وكان امام الامامية فى عهده أبو الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب سعى به الى المتوكل فأقدمه من المدينة الى سامرا التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وقد ظل مقيما بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له ان فى منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه اليه ليلا من هجم عليه منزله وهو غافل فوجد فى بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت الا الرمل والحصا وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو يقرأ ويدعو فحمل الى المتوكل فى جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه الى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدنى شعرا فأنشده

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ماقبروا ... أين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة ... من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرا وماشربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والاهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الاعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرا معطلة ... وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ورده الى منزله مكرما

وفى عهد المتوكل أتى بيحيي بن عمر بن يحيي بن زيد بن على بن الحسين من بعض النواحى وكان قد جمع جمعا فضربه عمر بن فرج ثمانى عشرة مقرعة وحبس ببغداد فى المطبق

الجيش

كان الجيش على العهد الذى كان عليه فى مدة الواثق والمعتصم وكلما قدم العهد زاد الاتراك نفوذا وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الاتراك فى الدولة واستبدادهم بأموال الخلافة وادارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بايتاخ الذى كان له الجيش والمغاربة والاتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة . أراد المتوكل الايقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو فى سامرا بين قومه وجنده فدس اليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف الى العراق وجه اليه المتوكل بكسوة وألطاف وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق وتقدم الى عامله على شرطة بغداد وهو اسحاق بن ابراهيم المصعبي بأمره فيه . فلما وصل بغداد قال له اسحاق بن ابراهيم ان أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم فى دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز. فلما صار ايتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلمانه ودخل الدار وحده

فكان فيها سجنه ثم نقل الى منزل اسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد فى عنقه و رجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا وكانت الشدة التى عومل بها ايتاخ سببا لوفاته فمات سنة ٢٣٥ وأما ابناه فبقيا فى الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التى أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار سنة ٢٤٣ أن يجعل دمشق حاضرته فشخص اليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الاتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه لأنهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن أقام بدمشق أياما أظهر أنه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندى والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل وغلت فيها الاسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائد الى سامرا ويظهر أن الاتراك هم الذين حملوه على العودة . وفى سنة ٢٤٥ أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى وأقطع القواد وأصحابه وجد فى بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما الى الجعفرى وأنفق عليها فيما قيل أكثر من الفى الف دينار وكان يسميها هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصرا سماه لؤلؤة لم يرى مثله فى علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمى على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شربا لما حوله من فوه النهر اليها وقدر للنهر من النفقة ٢٠٠٠٠٠ دينار لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل . لما انتقل الى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على

الفتك بوصيف و بغا وغيرهما من قواد الاتراك و وجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه فى خبر مقتله

وقد حصلت حوادث فى أطراف الدولة فى عهد المتوكل فاطفئت منها

أولا — حادثة محمد بن البعيث بن حلبس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب ابن أفصى بن دعمى بن جديلة فى مدينة مرند وهى من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبريز يومان كانت فى الاصل قرية صغيرة فنزلها حلبس أبو البعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبنى بها محمد قصرا. وكان محمد بن البعيث محبوسا فى حبس اسحاق بن ابراهيم فتكلم فيه بغا الشرابى وأخذ منه الكفلاء وأطلق فهرب الى مرند وهى موضعه من أذربيجان فرم ما كان وهى من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار فى نحو من ٢٢٠٠ رجل وكان الوالى باذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر فى طلبه فولى المتوكل حمدويه بن على بن الفضل السعدى أذربيجان ووجهه من سامرا على البريد فلما صار اليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار فى عشرة آلاف فزحف الى ابن البعيث فألجأه الى مدينة مرند ولما طالت مدته وجه اليه المتوكل زيرك التركى فى عدد كبير من الاتراك فلم يغن شيئاً فوجه اليه عمرو بن سيسل بن كال فكذلك فاختار له بغا الشرابى فى ٤٠٠٠ رجل ما بين تركى وشاكرى ومغربى وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا الى مدينة مرند وقطعوا ما حولها من الشجر شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقا وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابى ومعه أمانات لوجوه

أصحاب ابن البعيث ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين والا قاتلهم فان ظفر بهم لم يستبق منهم أحدا ومن نزل فله الامان وأرسلت لهم هذه الامانات مع عيسى ابن الشيخ الشيبانى وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث فدخلت جنود المتوكل المدينـة وقد أراد ابن البعيث أن يهرب فأدرك وأخذت حرمه وأخذ نحو ٢٠٠ من رجاله فوافاهم بغا الشرابي وقد تم الامر فكتب الى المتوكل بالفتح . ثم عاد الى سامرا ومعه أسراه فأمر المتوكل بحبسهم جميعا ثم أتى بابن البعيث فأمر بضرب عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلوحواله فقال المتوكل وغلظ عليه مادعاك يامحمد الى ماصنعت قال — الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وان لى فيك لظنين أسبقهما الى قلبى أولاهما بك وهو العفو — ثم اندفع بلا فصل فقال

أبى الناس الا أنك اليوم قاتلى ... امام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا الا جبلة من خطية ... وعفوك من نور النبوة يجبل
فانك خير السابقين الى العلا ... ولاشك أن خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل الى على بن الجهم وقال ان معه لادبا وعفا عنه وكان ابن البعيث أديبا شجاعا يقال ان له أشعارا نظمها بالفارسية . وكان ابن البعيث لما هرب قال

كم قد قضيت أمورا كان أهملها ... غيرى وقد أخذ الافلاس بالكظم
لا تعذلينى فيما ليس ينفعنى ... اليك عنى جرى المقدار بالقلم
سأتلف المال فى عسر وفى يسر ... ان الجواد الذى يعطى على العدم

ولم يمكث ابن البعيث بعد ذلك كثيرا فانه توفى بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم حلبس والبعيث وجعفر وصاروا فى عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وأجريت عليهم الانزال

(٢) اضطراب أرمينية . كان لبغا الشرابى ولاية أرمينية وأذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أباسعيد محمد بن يوسف المروزى وفى شوال سنة ٢٣٦ مات فجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولى حربها وخراجها فشخص اليها فضبطها ووجه عماله فى كل ناحية وبينا هو فى عمله خرج عليه رجل من بطارقة أرمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقراط بن أشوط خرج يطلب الامارة لنفسه فأخذه يوسف بن محمد فقيده وبعث به الى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فأجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرابى الى أرمينية مطالبا بدمه فشخص اليها من ناحية الجزيرة فبدأ بارزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا الى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخويثية وهم جة أهل أرمينية وقتلة يوسف بن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين الفا وسبى منهم خلقا كثيرا ثم سار مخترقا بلاد أرمينية لارهاب عصاتها حتى بلغ ديبل فأقام بها شهرا ومنها سار الى تفليس

ففى يوم السبت ١٠ ربيع أول سنة ٢٣٨ وجه زيرك التركى فجاوز الكر وعليه تفليس فى الجانب الغربى وصُغدبيل فى الجانب الشرقى وكان معسكر بغا فى الشرق وكان غرضهم من ذلك اخضاع اسحاق بن اسماعيل مولى بنى أمية

الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار فأقبل اسماعيل الى المدينة لينظر فاذا النار قد أخذت فى قصره ثم أتاه الاتراك والمغاربة فأخذوه أسيرا وأخذوا ابنه عمرا فأتوا بهما بغا فأمر بضرب عنقه ويقال انه احترق فى المدينة ٥٠٠٠٠ انسان وأسر من بقى حيا فيها وكان اسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم بغا الامان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاؤا وكان اسحاق مصاهرا لملك السرير تزوج بنته . ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخذ معه كثيرا من بطارقة أذربيجان وأران

الدولة اليعفرية

فى آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم ابن ابراهيم الحوالى نائبا عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان واليا للمعتصم على نجد اليمن صنعاء وما اليها ولما توفى عبد الرحيم قام فى الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها الا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجا يحمل الى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر بن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ واستمر ملك صنعاء فى أعقابه الى سنة ٣٨٧ وهذه أسماء ملوكهم

(١) يعفر بن عبد الرحيم	٢٤٧ ـ ٢٥٩
(٢) محمد بن يعفر	٢٥٩ ـ ٢٧٩
(٣) عبد القادر بن أحمد بن يعفر	٢٧٩ ـ ٢٧٩
(٤) ابراهيم بن محمد	٢٧٩ ـ ٢٨٥

(٤) أسعد بن ابراهيم ٢٨٥ - ٢٨٨

فترة لأئمة صنعاء والقرامطة ٢٨٨ - ٣٠٣

(٥) أسعد بن ابراهيم مرة ثانية ٣٠٣ - ٣٣٢

(٦) محمد بن ابراهيم ٣٣٢ - ٣٥٢

(٧) عبد الله بن قحطان ٣٥٢ - ٣٨٧

وقد اتبعنا فى ثبت هـذه الدولة ما جاء فى تاريخ الدول الاسلامية لمؤلفه لين بول وفيه بعض مخالفة لما فى تاريخ الدول الاسلامية للشيخ دحلان اه والحوالى نسبة الى عبد الله بن حوالة الازدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

العلاقات الخارجية. كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لاتزال دائمة الاتصال برا وبحرا لاتنقطع الا لهدنة وقتية

ففى سنة ٢٣٨ أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا اليه بالفسطاط ليتجمل بهم فلما جاءها الروم برا كبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا فى نحو ٣٠٠ مركب فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيرا من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ما وصلت اليه أيديهم من المغانم ثم عادوا الى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلما. وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك فى صوائفهم من جهة الدرب التى تلاصق المملكة الاسلامية من الجهة الشمالية وفى بحر الروم

وفى سنة ٢٤١ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس فى ١٢ شوال وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبـد الواحد الهاشمى القاضى وعلى بن يحيى الارمنى أمير الثغور الشامية وكانت عدة من فودى

به من المسلمين فى سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة على رواية المقريزى فى الخطط وروى الطبرى أن عدة أسرى المسلمين كانت ٧٨٥ انسان ومن النساء ١٢٥ امرأة قال المقريزى وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الاسلام مئة رجل ونيف فعرضوا مكانهم عدة أعلاج

وفى سنة ٢٤٢ خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيى الارمنى من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا عددا عظيما من الاهلين ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم فخرج فى أثرهم قربياس وعمر بن عبد الله الاقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب الى على بن يحيى أن يسير الى بلادهم شاتيا

وفى سنة ٢٤٤ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم فى شهر ربيع الآخر فغزا الصائفة فافتتح صملة

وفى سنة ٢٤٥ أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من ٥٠٠ وغزا على بن يحيى الارمنى الصائفة

وفى سنة ٢٤٦ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم فى صفر على يد على بن يحيى الارمنى ففودى بالفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا

صفات المتوكل وأخلاقه

لم يكن المتوكل كمن قبله فى حب النظر والجدل بل كان ميالا الى التقليد فأمر لاول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث واظهار السنة

لم يكن المتوكل ممن يوصف فى عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وامساكه بخلا. ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا افضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب . دخل عليه أبو عبادة البحترى الشاعر المشهور فأنشده قصيدة يمدحه بها قال فيها

عن أى ثغر تبتسم　　وبأى طرف تحتكم
حسن يضئ بحسنه　　والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى　　والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهى من　　أمان عدلك فى حرم
يابانى المجد الذى　　قد كان قوض فانهدم
أسلم لدين محمد　　فاذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى　　بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال ياأمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فأمر برده فأخذ ينشد أبياتا هزلية غثة لم نستحسن ايرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال يدفع الى أبى العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان ياسيدى البحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا فقال و يدفع الى البحترى عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة فى الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطرق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره فى سنة ٢٣٥ أن يلبسوا زيا خاصا بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشورا الى عماله فى الآفاق بذلك كتبه ابراهيم بن العباس الصولى فى شوال سنة ٢٣٥

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لاضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب

وتتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته فابطاله المناقشة فى القرآن وحدوثه ترفعه الى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه الى أسفل الدركات فكأنه عندهم لا عليه ولاله . أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد

ولاية العهد

تشبه المتوكل فى كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد فقد عقد الولاية لاولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وابراهيم المؤيد وذلك فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣٥ وقسم البلاد بينهم

فجعل لاكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار

مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكور باجرمى وتكريت وطساسيج السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الاهواز والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماسبذان ومهرجان قذق وشهرزور ووراباذ والصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة الى الجبال وصدقات العرب بالبصرة

وجعل لابنه المعتز كور خراسان ومايضاف اليها وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان و كور فارس وضم اليه فى سنة ٢٤٠ خزن بيوت الاموال فى جميع الآفاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين

وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الامين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالها اذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لايجوز أن يشرك فى شئ من أعمال أحدهما أحدا ولا يوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ولا يضرب على يده فى قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد اذا آلت الخلافة للمعتز وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج ممـا قيل من الشعر فى هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائله لان القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد . قال ابراهيم بن العباس الصولى

أضحت عرى الاسلام وهى منوطة بالنصر والاعزاز والتأييد

بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم فسعوا بأكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل

لم تكن قلوب كبار الاتراك مطمئنة الى المتوكل فقد وقع فى أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحدا بعد واحد فأخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين الى المعتز فاوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الاتراك وولى العهد . مال الاتراك الى المنتصر ليستعينوا به فى تنفيذ غرضهم ومال اليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلا أو آجلا . ومما زاد فى اغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فأمره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك فى هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعا فقد بلغ الله به فأمره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر فى منزله وفى الجمعة التالية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته ففعل . كل ذلك زاد المنتصر حقدا وخوفا على الخلافة أن تفوته . ويقال ان المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ولم يكن هذا السر ليستتر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابى فانه أعد لذلك قوما فى

مقدمتهم باغر التركى الذى كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الاجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه وكان معه الفتح بن خاقان فقتل معه وكان قتله ليلة الاربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ و يعجبنى ماقاله بعض شعراء الوقت فى تلك الحادثة

لا حزن الا أراه دون ما أجد وهل كمن فقدت عيناى مفتقد
لا يبعدن هالك كانت منيته كما هوى عن غطاء الزبية الاسد
لا يدفع الناس ضيما بعد ليلتهم اذ لا تمد الى الجانى عليك يد
لوأن سيفى وعقلى حاضران له أبليته الجهد اذ لم يبله أحد
هلا أتاه أعاديه مجاهرة والحرب تسعر والابطال تطرد
فخر فوق سرير الملك منجدلا لم يحمه ملكه لما انقضى الامد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له ليثا صريعا تنزَّى حوله النَّقَد
علتك أسياف من لادونه أحد وليس فوقك الا الواحد الصمد
أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
كم فى أديمك من فوهاء هادرة من الجوائف يغلى فوقها الزبد
اذ بكيت فان الدمع منهمل وان رثيت فان القول مطرد
قد كنت أسرف فى مالى وتخلف لى فعلمتنى الليالى كيف أقتصد
لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
فلو جعلتم على الاحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد

قوم هم الجذم والانساب تجمعهم والمجد والدين والارحام والبلد

وقال على بن الجهم من قصيدة له

عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبرا فكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فانه ملك الخلافة قوما لا احلوم لهم وليس لهم من الاخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأمونا وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكا فى دم أبيه وهذا أيضا أول حادث من نوعه ويعجبنى ما قاله البحترى

أكان ولى العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذلك الدعاء منابره

---

١١ — المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد سنة ٢٢٢ وعقد له أبوه ولاية العهد سنة ٢٣٥ وسنه ثلاث عشرة سنة . ولما قتل أبوه بايعه قواد الاتراك عقيب مقتله فى ٤ شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة الى أن توفى يوم الاحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) فكانت مدته التى تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصرا فى صناعته مطعونا عليه فى عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودى بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على مافعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة ابن الخصيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك فقال بعض شعراء ذلك الزمان

قل للخليفة يا ابن عم محمد أشكل وزيرك انه شكال
أشكاه عن ركل الرجال وان ترد مالا فعند وزيرك الاموال

الجيش

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الاتراك قوة فى الدولة على قوتهم لأن أيديهم امتدت الى حياة الخلفاء فقتلوا خليفة وساقوا الخلافة الى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك فى جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب الى قلوب الخلفاء من الهيبة لهم ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الاتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابنى المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا بخطهما أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى المؤيد وأبى المعتز فقال له المؤيد ياجاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم اخلع ويلك ولا تراجعهم — ومازال به حتى أجاب وكتبا ماأملى عليهما فى ذلك وهذا ما كتباه — بسم الله الرحمن الرحيم ان أمير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدنى هذا

الأمر وبايع لى وأنا صغير من غير ارادتى ومحبتى فلما فهمت أمرى علمت أنى لاأقوم بما قلدنى ولاأصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتى فى عنقه فهو من نقضها فى حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولاعهد لى فى رقابكم ولاعقد وأنتم براء من ذلك — ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بمافى الكتاب ثم أقبل عليهما والاتراك وقوف وقال لهما أترياني خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ماطمعت فى ذلك ساعة قط واذا لم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب الى من أن يليها بنو عمى ولكن هؤلاء (وأومأ الى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد) ألحوا على فى خلعكما فخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما ترياني صانعا أقتله فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم الى ماسألوا أسهل على

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ماعقده المتوكل وأكده بالايمان والمواثيق والعهود . وقد كتب المنتصر بذلك الى الآفاق وظهر فى كتابه براعة المنشئين فى ذلك الوقت وان لم تظهر فيه براعة الاخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له هو أحمد بن الخصيب

صفات المنتصر

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لاهراق دم أبيه فانه كان لايزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاقى أهوال التوبيخ فى يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه . دخل عليه عبد الله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكى وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائما فرأيت كأن المتوكل

قـد جاءنى فقال لى ويلك يامحمد قتلتنى وظلمتنى وغبنتنى خلافتى والله لا تمتعت بعدى الا أياما يسيرة ثم مصيرك الى النار فانتبهت وما أملك عينى ولاجزعى . فهون عبد الله عليه الامر . وكان كثيرا مايقول اذا سئل عن حاله ذهبت والله منى الدنيا والآخرة — فكان الرجل يكابد نيرانا تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم أن يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه أو أنه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر فى تفريق جمعهم وأثرت عنه كلمات فى ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة فى الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الى مثله . ومما حببه الى الناس ازالته عن آل أبى طالب ما كان قد أوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبارهم وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين رضى الله عنه ولا قبر غيره من آل أبى طالب وأطلق أوقاف الطالبيين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (ان لذة العفو أعذب من لذة التشفى وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الانصاف فى الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له

وفاة المنتصر

قال الطبرى لم أزل أسمع الناس حين أفضت اليه الخلافة من لدن ولى الى أن مات يقولون انما مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه مستفيضا ذلك على ألسن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التى

قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ ومات مع العصر من يوم الاحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال ان تلك العلة كانت الذبحة فى حلقه وبعضهم يقول كانت ورما خبيثا فى معدته ويقال أيضا انه سم سمه الطبيب فى مبضع والله أعلم أى ذلك كان

---

١٢ - المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد سنة ٢٢٠ وبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونيه سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة الى أن خلع يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و ٢٨ يوما

كيف انتخب

اجتمع الموالى وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الاتراك والمغاربة والاشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سمينا فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحدا من أولاد المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه كما أنهم لم يريدوا اخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلا عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالامر من المتوكل والمنتصر

فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ولكن أطيعوا انسانا يعرف لكم ذلك . فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعا الا بغا الكبير فانه قال لهم نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا . ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هو من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعا . وهو أول خليفة من بنى العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسى الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه

وفى عهده توفى من الاغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الاغلب سنة ٢٤٩ وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد الى سنة ٢٥٠ وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد بن الاغلب الى سنة ٢٦١

وفى عهده توفى من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر الى سنة ٢٥٩

الوزارة فى عهد المستعين

لم يكن للخليفة شئ من النفوذ فان الموالى هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلعهم اياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها الى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ماشاؤا حتى مثله بعض الشعراء بقوله

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فان وافق هواهم رضوا عنه وان خالفهم فى شئ أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره

تركوا الوزارة فى يد أحمد بن الخصيب الذى كان وزيرا للمنتصر ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه الى جزيرة أقريطش

واختير لوزارة المستعين أتامش أحد قواد الاتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة كاتبه شجاع فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده فى الاموال ومعه شاهك الخادم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم اليهما فى النفوذ والتصرف أم المستعين فانه لم يمنعها من شئ تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصرانى فكانت الاموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة فعمد أتامش الى ما فى بيوت الاموال من الاموال فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس فى حجر أتامش فكان ما فضل من الاموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف فى نفقاته وأسبابه وصاحب ديوان ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقتطع من ذلك أموالا جليلة لنفسه . نظرت الموالى الى هذه الحال الاموال تستهلك وهم فى ضيقة وأتامش هو صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا من ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم يزالا يدبران الامر عليه حتى أحكما التدبير فتذمرت الاتراك والفراغنة على أتامش وخرج اليه منهم يوم الخميس ١٢ ربيع الآخر سنة ٢٤٩ أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا اليه وهو فى الجوسق مع المستعين وبلغه الخبر فأراد

الهرب فلم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفى يوم السبت دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذى توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهبت دار أتامش فأخذوا منها أموالا جليلة ومتاعا وفرشا وآلة

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وأبوه كان قبل ذلك وزيرا للمأمون فمكث فى الوزارة نحو ثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالى لأنه أراد أن يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحزبه فأظهروا له الغضب فهرب منهم الى بغداد فى شعبان من سنة ٢٤٩

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائى وهو الذى كان وزيرا للمتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير

العلويون فى عهد المستعين

كان الذى فى عهد المستعين من أئمة الامامية الاثنى عشرية على الهادى وهو العاشر من أئمتهم وكان مقيما بسامرا

أما الزيدية فقد خرج منهم

أولا يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين خرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع دائما بالفشل فاستثار جمعا كثيرا من الاعراب وانضم اليهم جمع من الكوفة فعسكر بهم بضواحى الكوفة ولما علم بخبره محمد ابن عبد الله بن طاهر وجه الجنود اليه فبادر يحيى الى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد فى السواد ثم عاد الى الكوفة ودعا الى الرضا من آل محمد وكشف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من

أهل بيته غيره . أقام بالكوفة يعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح . كان الذى توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين ابن ابراهيم بن مصعب فلما وصل بجنده الى ظاهر الكوفة أشار على يحيي جماعة من الزيدية لاعلم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الاثنين ١٣ رجب سنة ٢٥٠ فى جمع ليسوا بذى علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع أن انهزم جند يحيي ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلا فداستهم الخيل ولما انكشف العسكر عن يحيي تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه الى محمد بن عبد الله بن طاهر فحمله الى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس لذلك وكثروا وتذمروا فرد الى بغداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك وقال أبوهاشم داود بن الهيثم الجعفرى فى ذلك

يابنى طاهر كلوه وبيا ... ان لحم النبي غير مرى
ان وترا يكون طالبه الله ... لوتر نجاحه بالحرى

ومع هذا الميل من الناس الى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لأنهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوى التدبير والحيل من رجال الحرب

ثانياً - خرج الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على. خرج بنواحي طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد ابن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد أن انتصر على يحيي ابن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى

الديلم وهما كلار وسالوس وبحذاء تلك القطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعى مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لأحد عليها ملك . وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصرانى لحيازة ما أقطع من تلك الاراضى وكان عامل طبرستان اذ ذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخى ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم و بسفههم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله الى ما قرب من بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبي منهم ورجع

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الارض التى تتصل بها من الموات الذى يرتفق به أهل تلك الناحية .

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديما بضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فانكرا مافعله جابر ومنعاه وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فنهضوا معهم وهرب جابر خوفا على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم الى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلار وسالوس أن يعين بعضهم بعضا على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيما بالرى فوجه اليه القوم من دعاه الى أمرهم فأجاب وتوجه اليهم فبايعوه وبايعه رؤساء

الديلم ثم ناهضوا من فى تلك النواحى من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلحقوا بمدينة سارية

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهى حاضرة طبرستان وجاء محمد ابن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هاربا — دخل الحسن مدينة آمل فكثف جيشه وغلظ أمره ومال اليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم

ثم سار من آمل الى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمد بن أوس الا النجاء منها بأنفسهما فهربا الى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلا الى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر

ورد الخبر بذلك الى المستعين ومدبر أمره وصيف التركى فوجه الى همذان قائدا فى جمع من الجنود ليقيم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها لأن ماوراء همذان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه

هكذا نجح الحسن بن زيد فى تكوين هذه الدولة التى تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بنى العباس أو آل طاهر طرفا عظيما تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ ـ ٣٥٥). تولى فيها

(١) الحسن بن زيد الداعى	٢٥٠ ـ ٢٧٠
(٢) محمد بن زيد القائم بالحق	٢٧٠ ـ ٢٧٩
الدولة السامانية	٢٧٩ ـ ٣٠١

(٣) الحسن الاطروش بن على بن الحسين بن على بن عمر بن زين العابدين ٣٠١ ـ ٣٠٤

(٤) الحسن بن القاسم بن على بن عبد الرحمن ٣٠٤ ـ ٣٥٥
ومعه أولاد الاطروش

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكى ولا مرتاحة من الاعداء فان بنى سامان الآتى ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان الى سنة ٣٠١ ثم ظهر الحسن الاطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الاطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائما بينهم حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ وانقضى الملك الزيدى من تلك الجبال

الجيش

كان ماظنه بغا الكبير فى محله فانه قال للقوم (نجئ بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أتامش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحها . ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركى الذى تولى قتل المتوكل لأنهما خافاه على أنفسهما وكان باغر قد جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل فجدد عليهم البيعة التى كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالاميرين) ونجئ بعلى بن المعتصم أو بابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على

غير شئ فأجابوه الى ذلك وانتهى الأمر الى المستعين فبعث الى وصيف و بغا فقال لهما ما طلبت اليكما أن تجعلانى خليفة وانما جعلتمانى وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلانى فحلفا له أنهما ما علما بذلك فأعلمهما الخبر فاتفق الرأى على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الاميرين الا حمل المستعين معهما والانحدار به الى بغداد يوم الاربعاء ٤ محرم سنة ٢٥١ ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الاتراك فدخلوا الى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فقال لهم أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا الى فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفي غلام وفى بناتكم فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة وفى المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتكم اليه وأدررت لكم الارزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك ارادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغيا وفسادا وتهددا وابعادا . فتضرعوا اليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك ان كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا الى سامرا فان الاتراك ينتظرونك . فأومأ محمد بن عبد الله بن طاهر الى محمد ابن أبى عون فلكز فى حلق بايكباك وقال له هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام

وقال لهم المستعين تصيرون الى سامرا فان أرزاقكم دارة عليكم وأنظر أنا فى أمرى ههنا ومقامى . فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا

أمرهم على اخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد فى حبس الجوسق فى حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز و بايعوه بالخلافة ولأخيه المؤيد بولاية العهد

وبذلك صارت بغداد في جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله بن طاهر ومن لف لفه وسامرا فى جانب المعتز . كان من أول ما فعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحصين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين الى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم مايحملون من الاموال الى بغداد ولا يحملون الى سامرا شيئا

دارت المكاتبات فكتب المستعين الى أتراك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم اياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك الى سيما الشرابى . وكتب المعتز الى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه الى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة . فلم تفد هذه المكاتبات شيئا وهيأ المعتز جيشا لحرب المستعين جعل قيادته لأخيه أبي أحمد بن المتوكل وتدبيره الى كلباتكين التركى . خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا فى غاية المحرم من سنة ٢٥١ ووصل باب الشماشية ببغداد لسبع خلون من صفر . وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيدا عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الارزاق وكانت الحرب بين الفريقين فى البر وفى النهر . وقد ظلت بغداد مرسحا للفتن والحروب

سنة ٢٥١ كلها وفى آخرها كاتب ابن طاهر المعتز فى الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال الى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الوقيعة فى ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الايقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع اليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه فحلف لهم بالله ما اتهمه وأنه لفى عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج فى غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاؤا فى الغد يطلبون خروج المستعين اليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل فى أوائل ذى الحجة الى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير ارادة المستعين

ويقال ان السبب فى عدول ابن طاهر عن الاخلاص للمستعين أن عبيد الله ابن يحيى بن خاقان الذى كان وزيرا للمتوكل قال له أطال الله بقاءك ان هذا الذى تنصره وتجد فى أمره من أشد الناس نفاقا وأخبثهم دينا والله لقد أمر وصيفا وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه وان كنت شاكا فيما وصفت من أمره فسل تخبره. وان من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر فى صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم فلما صار الى ما قبلك جهر بها مراآة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك ـ ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبد الله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا

كان من وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلى

أن تضعضع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطا تضمن حياته وراحته

وفى يوم السبت ١٠ ذى الحجة سنة ٢٥١ ركب محمد بن عبد الله الى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجا فوجا وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره الى محمد بن عبد الله فأرسل حينئذ محمد الى المعتز من جاء بخطه بقبول الشروط التى طلبها المستعين وعادت الرسل فى ثالث المحرم سنة ٢٥٢ وفى رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد ابن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد فنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما القوم بأعلم بالله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت — فما رد عليه محمد شيئا

ولما بايع المستعين المعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك الى المعتز وأشخص المستعين الى واسط . ويعجبنى هنا ما قاله أحد شعراء العصر

خلع الخليفة أحمد بن محمد	وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه فلا يرى	أحد بملك منهم يستمتع
ايها بنى العباس ان سبيلكم	فى قتل أعبدكم طريق مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت	بكم الحياة تمزقا لا يرقع

الاحوال الخارجية

كان الحال فى الخارج أشد من ذلك وأنكى فان الاضطراب الحادث فى

داخلية الدولة كان سببا فى تقاعد أولي الامر عن حماية الثغور والوقوف فى وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف أن قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا فى حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبيد الله الاقطع وعلى بن يحيى الارمنى وكانا نابين من أنياب المسلمين شديدا بأسهما عظيما غناؤهما فى الروم فاما أولهما فقد غزا ماطية فقابله ملك الروم فى جمع عظيم فأحاطوا به فقتل وقتل معه ألفا رجل وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من أرمينية الى ميافارقين فنفر اليهم فى جماعة قليلة فقتل مع نحو ٤٠٠ رجل

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين فى صدورهم مع ما لحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر لأمور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما اليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائدا يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت اليهم الابناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالا كثيرة من أموالهم فقووا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم وأقبلت اليهم العامة من نواحى الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكرا ولم تجد حركة العامة شيئا

١٣ – المعتز

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيحة ولد سنة ٢٣١ وكان أبوه المتوكل جعله ولى عهده بعد المنتصر فلم تتم له الولاية لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولى المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعتز وبويع وتم له الامر بعد خلع المستعين فى رابع محرم سنة ٢٥٢ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل واليا الى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٣٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوما

وزراء المعتز

لم يكن للوزارة فى هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه أن يقوم بحاج كبار الاتراك ومقدميهم بقى فى منصبه والا عزل وفعلت به الافاعيل

أول وزراء المعتز أبو الفضل جعفر بن محمود الاسكافى . لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لأنه كان يكرهه وكان الاتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك

وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخانشاه ولم يمكث الا قليلا حتى عزل بسبب

فتنة كالأولى فولى بعده أحمد بن اسرائيل الأنبارى وهو كاتب حاذق ذكى وكان المعتز يميل اليه لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلى الخلافة فمكث وزيرا الى سنة ٢٥٥ ومما يدل على قدر ما صار اليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد فى أحوال الدولة الكيفية التى عزل بها أحمد بن اسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه

دخل صالح بن وصيف مقدم الاتراك على المعتز وقال له ياأمير المؤمنين ليس للاتراك عطاء ولا فى بيت المال مال وقد ذهب ابن اسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن اسرائيل ياعاصى يا ابن العاصى ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشيا عليه من شدة الغيظ والحرد فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز مصلتين فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد بن اسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن ابراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم هب لى أحمد فانه كاتبى وقد ربانى فلم يفعل ذلك صالح و بعثت اليه أم المعتز فى ابن اسرائيل تقول له اما حملته الى المعتز واما ركبت اليك فيه . فلم يفد هذا ولا ذاك شيئا . وهذا دليل على انحطاط عظيم فى أمر الخلافة وزاد صالح الامر شنعة فبعث الى جعفر بن محمود الاسكافى الذى كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه

واسكاف الذى ينتمى اليها جعفر بن محمود قرية من نواحى النهروان بين

بغداد وواسط من الجانب الشرقى وهى اسكاف العليا وهناك اسكاف السفلى بالنهروان أيضا

العلويون فى عهد المعتز

فى عهد المعتز مات على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا وهو الامام العاشر من أئمة الشيعة الامامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكرى وهو الحادى عشر من أئمتهم وانما لقب بالعسكرى لاقامته بسامرا التى كانت تدعى اذ ذاك بالعسكر

اما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبيين فى بغداد والكوفة بالدعوة للحسن ابن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم اليه بسامرا فحملوا اليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وانما توثق منهم

حال الجيش والاتراك

استخلف المعتز وأحوال الجند والاتراك على شر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لأنه لا يد فوق أيديهم تقف كلا منهم عند حده ولا حيلة للخليفة الا مراعاة جانبهم حينا واعمال الحيلة والدسائس حينا وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة له على استرداده

فى أول خلافة المعتز كتب باسقاط اسم وصيف و بغا وهما أكبر قواد الاتراك لما كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلا الى محمد بن عبد الله ابن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفا و بغا فجاآ الى محمد وقالا بلغنا أيها الامير ماعزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه والله لو أرادوا

أن يقتلونا ماقدروا فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الاتراك عند المعتز وسألوه الأمر باحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب اليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد الى سامرا فذهب لزيارتهما فى منزلهما وزير المعتز أحمد بن اسرائيل وردهما المعتز الى مراتبهما رغم أنفه بناء على الحاح الاتراك وردت اليهما ضياعهما

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الاتراك رأى المغاربة ما عليه الاتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم الى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد منهم وجاءوا الى الاتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم فى كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرا وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذى كان وزيرا للمعتز قبل أحمد بن اسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه ولما أخرجت المغاربة الاتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها فاجتمع الأتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين على ألا يحدثوا شيئا ويكون فى كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الاتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذى تولى ذلك بايكباك أحد كبار قواد الاتراك ولم يفعل المعتز فى ذلك شيئا وعاد النفوذ الى الاتراك

وفى سـنة ٢٥٣ـ شغب الاتراك والفراغنة والاشروسنية وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما الشرابى فكلمهم وصيف وقال لهم ما تريدون قالوا أرزاقنا فقال خذوا ترابا وهل عندنا مال وقال لهم بغا نذهب فنستأمر أمـير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقى وصيف فى أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهزوا عليـه ونصبوا رأسه على محراك تنور

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل الا أن جعل ما كان الى وصيف من الامور الى بغا الشرابى . خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير الى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه أن يجرى عليه ماجرى على سلفه . وكان بايكباك كبير الاتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفا عن بغا وكانا متهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا فجمع بايكباك جوعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد ووثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتتبع عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا اليها هرابا فحبس من ولده وأصحابه نحو ٢٥ شخصا وصارت الـكلمة العليا فى الاتراك و فى الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين الأول بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها والثانى وجود محمد بن عبدالله بن طاهر بها وهو رجل ذو عزم وأيد زيادة على ماله فى نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب فى سنة ٢٥٢ وذلك أن المعتز كتب الى محمد بن طاهر يأمره أن

يبيع غلال بعض الضياع التى منها أرزاق جند بغداد وكتب الى والى البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الامير ابن طاهر فلما قرئ الكتاب على القواد جاؤا الى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والى البريد وقال له ماحملك على هذا بغير علمى وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية الى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق جند بغداد ان كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وان كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم — أعطاهم ابن طاهر ماسكنهم به وقتاثم اجتمعوا فى ١١ رمضان سنة ٢٥٢ ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتا من بوارى القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل دينارا وشحن داره بالرجال

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذى كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم وضمن لهم أن يكون رأسا يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون. عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا الى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا الى الامام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب الى الجامع

وجه اليهم ابن طاهر قواده فى جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين

ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد الى ما كانت من الأمن

وفى ١٤ ذى القعدة سنة ٢٥٣ توفى الامير محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد واستخلف على امارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته: —

أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخى الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين الى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك وأتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره ان شاء الله وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله الى سنة ٣٠٠ وهى سنة وفاته

خاتمة المستعين سلف المعتز

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطا عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا فى هذا الكتاب تأكيدا شديدا وارتضى أن يقيم بالبصرة فقيل له ان البصرة وبيئة فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين هى أوبأ أو ترك الخلافة . فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وابن أبى حفصة الى واسط لا الى البصرة فى نحو ٤٠٠ من الفرسان وقبل أن تنتهى السنة بدا المعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل الى ابن طاهر يأمره أن يكتب الى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو أحمد ابن طولون التركى فأخرج المستعين من واسط لست بقين من شهر رمضان

فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال فتسلمه منه سعيد بن صالح وكان فى ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيرا وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل هذا رأس المخلوع فقال ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر اليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة

وكما لم يأبه المعتز بكتابه أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه ابراهيم المؤيد ولا لسابقة أخيه أبى أحمد بن المتوكل وهو الذى قاد الجيش الى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فانه خلع الأول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثانى وضيق عليه وسبب ذلك أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث الى ابراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير اليها فأخذها فأغرى المؤيد الاتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز الى أخويه المؤيد وأبى أحمد فحبسهما فى الجوسق وقيد المؤيد وصيره فى حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة ٧ رجب سنة ٢٥٢

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز أن الاتراك يريدون اخراجه من سجنه فأرسل الى موسى بن بغا فسأله فأنكر وقال انما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لانسهم به كان فى الحرب التى كانت وأما المؤيد فلا . فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد الى الحجرة التى كان فيها المؤيد ثم نفاه سنة ٢٥٤ الى واسط ثم الى البصرة ثم رد الي بغداد وأنزل الى الجانب الشرقى فى قصر دينار بن عبد الله

خلع المعتز

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذى أوضحناه قبل فى تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود الى المعتز وقالوا له أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فأرسل المعتز الى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئا وأنكرت أن يكون عندها شئ ولما وجد الاتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشئ وبيت المال خال اتحدت كلمة الاتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فصاروا اليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه الا صياح القوم واذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه فى السلاح فجلسوا على باب المنزل الذى ينزله المعتز ثم بعثوا اليه اخرج الينا فبعث اليهم انى أخذت الدواء أمس وقد أجفلنى اثنتى عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فان كان أمرا لا بد منه فليدخل الى بعضكم فليعلمنى فدخل اليه القوم فجروا برجله الى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربا بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه ثم بعثوا الى قاضى القضاة فحضر وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له فأمضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال انه بعد الخلع دفع الى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذى سعى كثيرا للحصول على هذه الخلافة وركب فى سبيل الخلاص ممن توهم مزاحمين له مالا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه ثم قتله

ونفى أخاه الثانى كل ذلك لتهنأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب الفساد المستحكم فى الدولة وقال بعض شعراء العصر فى ذلك

عين لا تبخلى بسفح الدموع　　واندبى خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالتـــه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه　　خلعته أفديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجورا فألفو　　ه كريم الاخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البد　　ر فتلقاه مظهرا للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشـــرق اما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشا ولا رهبوا السيـــف فلهفي على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكى الأمر والعا　　لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمـــر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال آخر من قصيدة

أصبحت مقلتى تسح الدموعا　　اذ رأت سيد الانام خليعا
لهف نفسى عليه ما كان أملا　　ه وأسراه تابعا متبوعا
ألزموه ذنبا على غير جرم　　فثوى فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمه وعم أبيه　　أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يغـــزى عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية يركبون بالحلية الخفيفة من

الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى فعل ذلك

١٤ - المهتدى

هو محمد المهتدى بالله بن هرون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ولد سنة ٢١٨ وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة الى أن خلع فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونية ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهرا وأياما

كيف انتخب

لما عزم الاتراك على خلع المعتز أرسلوا الى بغداد فأحضروا محمدا هذا وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة الى سامرا فتلقاه الموالى فى الطريق ودخل الى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب اليه فعانقه وجلسا جميعا على السرير فقال له محمد يا أخى ماهذا الامر قال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الاتراك فقال المعتز لاحاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال محمد فانا فى حل من بيعتك قال أنت فى حل فلما جعله فى حل من بيعته حول

وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورد الى محبسه وكان من أمره ما قدمنا

وزراء المهتدى

أبقى المهتدى محمود بن جعفر الاسكافى على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد . وهو من بيت قديم فى الكتابة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك وكان أبوه وهب فى خدمة جعفر بن يحيى البرمكى ثم تحول الى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجبت لمن معه وهب كيف تهمه نفسه ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده . أما سليمان فكتب المأمون وعمره ١٤ سنة ثم لايتاخ ثم لأشناس وولى الوزارة للمهتدى والمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ومن طريف المدح ما قاله أبو تمام فى سليمان بن وهب

كل شعب كنتم به آل وهب — فهو شعبى وشعب كل أديب
ان قلبى لكم لكالكبد الحر — ى وقلبى لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحترى

كأن آراءه والحزم يتبعها — تريه كل خفى وهو اعلان
ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه — وان تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة فى الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم واستمر وزيرا للمهتدى الى أن خلع

حدث عبدالله الباقطانى وكان يتقلد ديوان المشرق قال دخلت مع أبى العباس ابن ثوابة الى المهتدى وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل اليه الوزير

وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع اليهم فى الأعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة الى جماعة من العمال فأخذ سليمان بيد أبى العباس بن ثوابة ثم قال له أنت اليوم أحد ذهنا منى فهلم نتعاون فدخلا بيتا ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أخر فكتبا الكتب التى أمر بها سليمان ما احتاج أحدهما الى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدى المهتدى فقال له وقد قرأها أحسنت ياسليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان اذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا الى أن يتسلم عمله فقال له ياأمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله وان كان حقا وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل اليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للاموال. فقال اذا كان هكذا فلا بأس. ثم قال له اكتب الى فلان العامل بقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل فى يده بباقى ما عليه من المصادرة فقال له أبو العباس بن ثوابة كلنا ياأمير المؤمنين خدمك وأولياؤك وكلنا حاطب فى حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق قال بل قل بالحق ياأحمد فقال ياأمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفترى أن أزيل اليقين بالشك قال لا قال فقد شهدت للرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فتجعل المصادرة صلحا فاذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له صدقت ولكن كيف الوصول الى المال فقال له أنت لا بدلك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق

ويرتفق فيحوز رفقه ورزقه الى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين الى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود اليك مالك فأمر سليمان به وهب أن يفعل ذلك

وقد سقنا هذه الحكاية لنبين ما كان عليه العمال اذ ذاك من تحايل الارتفاق واقامة البرهان بين يدى الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل الارشوة وماهذا المعجل والمؤجل الذى لاحظ المهتدى على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج له وأقنع خليفته بأنه لاضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق ·

صفات المهتدى

كان المهتدى من صالح بنى العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى ان الجند تأسوا به الا أن الدولة كانت وصلت الى الدرجة التى لايصلحها فيها مثل المهتدى فى صلاحه وكثرة عبادته

فى بدء خلافته كان موسى بن بغا أميرا على الرى وقائدا للجنود التى تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبي فلما بلغه مافعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدى ترك ذلك الثغر وأقبل مريدا سامرا فكتب الخليفة اليه كتبا كثيرة يطلب اليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل اليه فى ذلك رسلا من بنى هاشم فلم يطع وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن

الثغر وينسبه الى المعصية والخلاف . قدم موسى سامرا حنقا على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدى وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه الى معسكرهم فقال لموسى ماتريد ويحك اتق الله وخفه فانك تركب أمرا عظيما فرد عليه موسى خيرا ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق ألا يمالئ صالحا عليهم ففعل فجددوا له البيعة فى ١٢ محرم سنة ٢٥٦ ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدى باخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر فى العامة فكتبوا رقاعا القوها فى المسجد الجامع وفى الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فان الموالى قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم) فلما بلغ ذلك الاتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا الى المهتدى يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وماصار من الاقطاعات الى قوادهم التى قد أجحفت بالضياع والخراج وماصار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا كثيرا من أموال الخراج . وهذه الشكوى كانت فى الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا الى اصلاحها فخربت وأدى ذلك الى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند

كتب اليهم المهتدى يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ما ذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر فى أمر الاقطاعات ويسير فيها على ما يحبون . فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون وهو

(١) أن ترد الامور الى أمير المؤمنين فى الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض

(٢) أن ترد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين وهو أن يكون على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد

(٣) ألا يدخل مولى فى قبالة ولا غيرها

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على مالم يزل

(٥) أن تبطل الاقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء

وذكروا أنهم سيصيرون الى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وأنه ان بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين فى شئ من الأمور أخذوا رأسه وان سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالبا وغيرهم

وهذه المطالب كلها فى مصلحة الخلافة لذلك أجابهم اليها المهتدى موقعا بخطه اجابة الى كل ماسألوا — فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون اليهم

فأعادوا الكتاب يقولون لانرضى حتى يخرج الخليفة خمس توقيعات بطلباتهم

ثم يصير أمير المؤمنين الجيش الى أحد اخوته أو غيرهم ليسفر بينهم و بينه بأمورهم ولا يكون رجلا من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ماعندهم من الأموال. وكتبوا الى القواد بمثل ما كتبوا به الى المهتدى وأخبروهم أنه ان شا كته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤسهم جميعا

فلما جاء كتابهم المهتدى كتب لهم بكل مايريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمس التى طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا. فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فانا قد هلكنا بتأخيرها عنا — وطائفة يقولون لانرضى حتى يولى علينا أمير المؤمنين أحد اخوته فيكون واحدا بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحدا منا يكون علينا رأسا ولم يكتبوا للمهتدى جوابا شافيا -- فأرسل اليهم المهتدى يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد ان أجيبت طلباتهم فتفرقوا ثم عادوا الى الاجتماع

كانت كل هذه الاحوال فرصا لخلاص المهتدى من سيادة القواد الاتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة فى الخلاص منهم فأنفذ جند المحاربة خارجى وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح فكتب المهتدى الى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذى مع موسى الى نفسه وأن يكون هو أمير الجيش وأن يقتل موسى ومفلحا — فلما وصل الكتاب بايكباك ذهب الى موسى وأراه اياه وقال له انى لست أفرح بهذا وانما هو تدبير علينا جميعا واذا فعل بك اليوم شئ فعل بى غدا مثله فما ترى قال أرى أن تصير الى سامرا وتظهر له أنك فى طاعته فانه يطمئن اليك ثم تدبر فى قتله فقدم بايكباك

فدخـل على المهتدى فأظهر المهتدى الغضب من مخالفته حيث لم يقتـل موسى ومفلحا فاعتذر اليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدى ذلك استشار صالح بن على بن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل مافعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهتـدى بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والاتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم الا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدى برميها اليهم فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فحاربتهم الفراغنة والمغاربة والاشروسنية وكثر بينهم القتـل ثم انفصل الفريقان وذهب الاتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدى وفى عنقه مصحف يدعو الناس الى نصرته فلما التحم القوم مال الاتراك الذين مع المهتدى الى اخوانهم وبقى فى المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الاتراك حملة شديدة ففروا منهزمين معهم المهتدى والسيف فى يده مشهور وهو يقول يامعشر الناس انصروا خليفتكم — حتى صار الى دار محمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الاتراك خبره فجاؤا اليه وقبضوا عليه وحملوه الى داره مهانا وذلك فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦

١٥ – المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد سنة ٢٣١ وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ (١٩ يونيه سنة ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفي ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته ٢٣ سنة وثلاثة أيام وكان يعاصره فى الاندلس محمد ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٧٣ ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ – ٢٧٥) ثم عبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠)

وفى افريقية وصقلية من الاغالبة محمد بن أحمد بن الاغلب المتوفى سنة ٢٦١ ثم أخوه ابراهيم المتوفى سنة ٢٨٩

وفى اليمن من آل زياد بزبيد ابراهيم بن محمد بن ابراهيم (٢٤٥ – ٢٨٩)

وفى اليمن من آل الحوالى بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ – ٢٧٩)

وفى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ – ٢٥٩) وهو آخر الامراء الطاهرية بخراسان

ويعاصره فى طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ – ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ – ٢٧٩)

ويعاصره فى بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلبى (٨٦٧ – ٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ – ٩١١)

ويعاصره فى فرنسا شارل الملقب بالاصلع (٨٤٠ - ٨٧٧) ثم لويز الثانى الملقب بالتمتام الى سنة ٨٧٩ ثم لويز الثالث الى سنة ٨٨٢ ثم كارلومان الى سنة ٨٨٤ ثم شارل الملقب بالغليظ الى سنة ٨٨٧ وكان امبراطور المانيا أيضا ثم أودون الذى توفى سنة ٨٩٨

الاحوال الداخلية

كانت نتيجة طلبات الاتراك أن يتولى أمر الجيش أحد اخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه فى صفر سنة ٢٥٧ الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه فى رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والاهواز وفارس . وفى ربيع الاول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلى لأبى أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبى أحمد هى العليا على الاتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الاحوال العامة بعض التحسين وان كانت ساءت أحوال المعتمد نفسه لانه لم يترك له شئ من التصرف حتى انه احتاج فى بعض الاحيان الى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شئ فى يديه
اليه تحمل الأموال طرا ويمنع بعض ما يجبى اليه

كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلا صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب

والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام فى عهد المعتمد وسنقتصها بعد أن نذكر اجمال الوزارة لعهده

كان الذى يولى الوزراء هو أبو أحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له الا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقد قدمنا ذكره اذ كان وزيرا للمتوكل ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا الا اياه فرضى بعد ذلك الاباء وكان عبيد الله خبيرا بأحوال الرعايا والاعمال ضابطا للاموال ولم يزل وزيرا الى سنة ٢٦٣ حيث مات بسقوطه عن دابته فى الميدان وصلى عليه أبو أحمد بن المتوكل ومشى فى جنازته

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتبا لأبى أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . وأصله من ديرقنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق مافيه بحيث لو سئل فى الغد عن أى شئ كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . ولم يمكث فى وزارة المعتمد كثيرا فان مدته لا تزيد على ١٦ يوما من ١١ ذى القعدة سنة ٢٦٣ الى ٢٧ منه وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الاتراك فانه لم يكن على وفاق معه فهرب الى بغداد عقب حضوره

ولى الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذى كان وزيرا المهتدى وقد قدمنا صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى أحمد الموفق الى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا

وفى سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد الى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره ودارى ابنيه وهب وابراهيم وأعاد الى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد الى الجانب الغربى فعسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلفت الرسل بينهما . ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد الى حراقة فى دجلة وصار اليه أخوه أبو أحمد فى زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد وفى ثامن ذى الحجة عبر جند أبى أحمد الى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد الى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب فى قبض أموالهما وأموال أسبابهما

ولم يدم رضا أبى أحمد طويلا عن سليمان بن وهب فانه غضب عليه سنة ٢٦٥ وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسبابهم فى دار أبى أحمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على ٩٠٠٠٠٠ دينار وصيرا فى موضع يصل اليهما من أحبا

وقد مات سليمان بن وهب فى حبس أبى أحمد سنة ٢٧٢

ولى الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر اسماعيل بن بلبل وهو عربى ينتسب الى

شيبان ولكن نسبه كان مغموزا ومن مساورة الظنون للمتهم أن ابن الرومى الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا كما علا برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله قلت لهم كلا ظن أن ابن الرومى قد هجاه بذلك باطنا وأنه عرض بأنه دعى واشتبه على أبى الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومى الى افهامه معنى الشعر فلم يقبل فى ذلك قول قائل وقيل له ياسبحان الله فانظر الى البيت الثانى وحسن معناه فانه معنى مخترع مامدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بأن ابن الرومى هجاه فكان ذلك داعيا الى أن سل ابن الرومى عليه لسانه وهجاه فأفحش فى هجائه ومما هجاه به قوله

مهلا أبا الصقر فكم طائر خر صريعا بعد تحليق

زوجت نعمى لم تكن كفؤها فصانها الله بتطليق

لاقدست نعمى تسربلتها كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريما مطعاما متجملا وبلغ فى الوزارة مبلغا عظيما وجمع له السيف والقلم فنظر فى أمر العساكر أيضا وسمى الوزير الشكور

وفى سنة ٢٧٨ قبض على أبى الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته و بيت وهب

وممن خدموا فى كتابة الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه سنة ٢٦٥ واستعمله الموفق فى قود الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمى ذا الوزارتين سنة ٢٧٠ وقبض عليه الموفق سنة ٢٧٢ وعلى ابنيه أبى عيسى وأبى صالح وعلى أخيه عبدون

وعلى الجملة فان أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا وقد استوزر بعض من سمينا من الوزراء أكثر من مرة

العلويون

فى عهد المعتمد على الله توفى أبو محمد الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على وهو الحادى عشر من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية والذين فى عمود نسبه الى على بن أبى طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن على وكانت وفاة الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ بسامرا ودفن بها بجانب أبيه على الهادى ولما توفى اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيرا وجمهورهم على أن الامام بعده ابنه محمد العسكرى وهو الثانى عشر من أئمتهم قالوا انه دخل سردابا فى دار أبيه بسامرا وأمه تنظر اليه فلم يخرج اليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ويسمونه المنتظر والقائم والمهدى والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب

ويقول غيرهم ان الحسن العسكرى لم يعقب وان سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن على

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جهور المسلمين به بل

وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الاولاد منهم عبدالله الأفطح ومحمد وموسى واسماعيل

فقال قوم ان الامامة بعد جعفر لابنه عبد الله الأفطح لأنه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم أن جعفرا نص على امامته بعده ومع ذلك فانه لم يعش بعد أبيه الا سبعين يوما ولم يعقب ولدا ذكرا

وقال قوم ان الامامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه أنه قال ان صاحبكم اسمه اسم نبيكم .

وقال قوم منهم الاثناعشرية الذين ذكرناهم ان الامامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه أنه قال سابعكم قائمكم واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الامامة فى أولاده كما بينا

ومنهم من قال ان الامام بعد جعفر ابنه اسماعيل نصا عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل انه عاش بعد أبيه ومن قائل انه مات فى حياة أبيه وفائدة النص بقاء الامامة فى أولاده دون غيره وساقوا الامامة من بعده الى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الاسماعلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق وهم امامية يتفقون مع الامامية الاثنى عشرية فى المبدأ العام للتشيع الامامى وهو أنه لابد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله ﷺ وأن الشريعة لاتؤخذ بالرأى ويتفقون معهم على امامة الستة من على بن أبى طالب الى جعفر الصادق ومنه يبتدئ الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا الى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا الى فرع اسماعيل

ولما كان الامام هو حجة الله على خلقه وأنه لابد من وجوده ليؤدى ما نيط

به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد اسماعيل بالظهور للناس قالوا ان الامام قد يكون مستورا مكتوما عن الناس خبره وحينئذ لا بد له من نائب يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه وساقوا الامامة الى محمد بن اسماعيل ثم الى أولاده من بعده وظهرت الدعوة الى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكرى خاتمة أئمة الشيعة الاثنى عشرية وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيرا منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية و يقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم الى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهى نحلة تنسب الى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الاسلامى بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون فى السنة الأولى من ملك ططوس بن انطونيانوس الرومى وجاء بعد ابن ديصان مانى وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة فى أصولها فالمرقيونية يقولون بوجود أصلين قديمين هما النور والظلمة وقالوا ان ههنا كونا ثالثا هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للأشياء بأمره وقدرته الا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث وأن الصنعة بينة فيه لا يشكون فى ذلك وزعموا أن من جانب الزهومات والمسكر وصلى لله دهره وصام أبدا أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الاشياء كلها لا يخلو من ضرر والله متنزه عنه

أما الديصانية الذين جاؤا على أثرهم فتقول أيضا بالأصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم ان النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة ان النور أراد أن يرفع الظلمة

عنه لما أحس بخشونتها ونتنها فشابكها بغير اختياره وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الديصانية أن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حى حساس عالم وأن الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة فى مذهبهم

والمانية يقولون أيضا بالأصلين النور والظلمة وهما مبدأ العالم فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الاله وزعم أنه أزلى بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض — والأصل الثانى الظلمة وله كلام طويل فى بدء كون الانسان واشتباكه مع ابليس وغلبة الثانى الاول ثم خلاص الثانى من هذه الشباك وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها وسن لهم عبادات من الصلاة والصوم . وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد مانى أئمة يدينون بطاعتهم قبل الاسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم مانى ومن بعده من الأئمة . وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين الى اعتقاد مذهب مانى وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدى وابنه الهادى فقتل منهم عددا كبيرا قال ابن النديم فى الفهرس قيل ان البرامكة بأسرها الا محمد ابن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل فى الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدى زنديقا واعترف بذلك فقتله المهدى قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم وكذب فى ذلك وقيل كان محمد ابن عبد الملك الزيات زنديقا . ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك اياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت نصيحتك

يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية ان عبد الله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن اليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة الى الموضع الذى فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران فى موضع يعرف بسباط أبي نوح فبنيت احداهما مسجدا والأخرى تمت على خرابها وصار الى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب فكبس هناك فهرب الى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية العبيدية من نسل هذا الرجل وأن عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب ارضاء لبنى العباس الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم مايحاربونهم به الامثل هذه الاقاويل والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول الى هدم دولة بنى العباس الا أنها شيبت بشئ من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساسا لها حتى لا يفجأ المدعو

بالغرض السياسى لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك فى ظلمات حتى لاتتميز حقيقتها

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبريان كلتاهما ضد الدولة العباسية احداهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ ١٦٠ سنة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها الثانية قوة ذات فوضى وجور ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لاول ظهورها بالعراق وهى القرامطة وهذه أولاهما فى الظهور فانها ظهرت بوادر شرها فى عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها وسنتكلم الآن عن القرامطة .

ظهر فى أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم اليها من نواحى خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو الى امام من أهل البيت وكان يزداد فى أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ثم مرض وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل الى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيما عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس الى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الاكرة وكان يأخذ من كل من دخل فى مذهبه دينارا يزعم أنه للامام واتخذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم أنها مفروضة عليهم .

كان للهيصم فى تلك النواحى ضياع فوقف على تقصير أكرته فى العمارة فسأل

عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه فى طلبه فأخذ وجىء به اليه فحبسه واشتغل بشربه . رقت احدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التى حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح الى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة فى الناس فافتتنوا به وقالوا رفع ثم ظهر فى ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحدا أن يناله بسوء فعظم فى أعينهم . ومع ذلك فانه خاف على نفسه وخرج الى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذى آواه وهو كرمية ثم خفف فقيل قرمط

ثم فشا مذهب القرامطة فى سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر فى تغيير شىء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التى حلت بالامة الاسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره فى مواضعه ان شاء الله

دعى آل على

لم يكف بنى العباس ما أصاب دولتهم من آل على بن أبى طالب الذين نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعضعوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعى فى آل على لا يعرف له الطالبيون نسبا ولا رحما يدلى بدلوه فى الدولة لينال منها حظا لنفسه ذلك هو علوى البصرة أو الخبيث صاحب الزنج الذى زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين سنة ٢٤٩ فادعى أنه عباس ودعا الناس بهجر الى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت

فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم الى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبى وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له فتحول عنهم الى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبنى حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه . نبت به البادية اسوء طاعة أهلها فشخص الى البصرة فنزل بها فى بنى ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم على بن أبان المعروف بالمهلبى وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ وعاملها محمد بن رجاء الحضارى فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل اليه منهم ابن الدعى

مضى الدعى مع من اتبعه حتى صار الى مدينة السلام فأقام بها حولا يستميل اليه الناس سرا حتى اذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص اليها فى رمضان سنة ٢٥٥ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشى وهناك خطرت له فكرة غريبة وهى الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحى فى حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثير والعدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكى رقابهم فأخذ منهم غلاما اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائدا وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه الى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجتمع اليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرئسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الايمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان الا أتى به اليهم . حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو ١٥٠٠٠ غلام

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من سنة ٢٥٥ وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وان الله قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الامور ثم حلف لهم على ذلك . وشرع فقود قواده وقال لهم كل من أتى برجل فهو مضموم اليه . استمر يعيث فى تلك الجهات وينهب الاموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت اليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوى أمره جدا بتلك الواقعة وحل الرعب فى قلوب أهل البصرة وكتبوا الى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدى بالله . أقام الدعى بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبى قرة ثم تحول منها الى الجانب الغربى من نهر أبى خصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة فى دجلة وكانت شيئا كثيرا

وفى رجب سنة ٢٥٦ أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهل عبادان خوفا أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم الى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكرا الى الاهواز فاستولى عليها وأسر ابراهيم ابن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعبا . أرسل السلطان الى الدعى جنودا فكان نصيبها أبدا الفشل

وفى شوال سنة ٢٥٧ أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف اليه من العبيد وما يتاح له من

النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق الا أن يحشد اليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسى من ذلك قوة روح . فعبأ جندا كثير العدد تام العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعى وقد كانت لأبى أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواما وفى آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعى وكان ذلك فى أواخر سنة ٢٧٠ وأمر الموفق كاتبه أن يكتب الى أمصار الاسلام بالنداء فى اهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الاهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعى وأن يؤمروا بالرجوع الى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس الى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التى اختطها الموفق هناك من جميع النواحى وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنا وايناسا

وكان خروج صاحب الزنج فى يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة ٢٥٥ وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت أيامه من لدن أن خرج الى اليوم الذى قتل فيه ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام . وكان دخوله الاهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٥٦ وكان دخوله البصرة وقتله أهلها واحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧

ولم يكن يدرى الا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم كان الأمر ينتقل من أيدى الاتراك الى أيدى الزنوج

فتقع الأمة فى الشر العظيم والوباء الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولا فانتصار العباسيين عليه خلاص للأمة من شر مستطير

الاضطراب فى المشرق

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون اليهم خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر وما اليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفاة لما عهد به اليهم موثوقا بهم فى ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية الا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك الى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشره الى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معا كسيها الا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التى يحسب حسابها كل عاص وكل طامع

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعهامابيدهامن هذا الملك الطويل العريض

الأولى القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناهاقبل

الثانية القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . كان هذان الرجلان يشتغلان فى حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلا من أهالى سجستان وكان مشهورا بالتطوع فى قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكنانى فأحبهما وحظى بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه . ولما توفى صالح ولى مكانه فى رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان

يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائدا لعسكره . كان درهم غير ضابط لأموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهما وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفرا عظيما وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحدا قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما اليها . ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له . وكان ملكه هراة وبوشنج سنة ٢٥٣ وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميرا بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث اليه بهدية سنية منها مسجد فضة مخلع يصلى فيه خمسة عشر انسانا وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى اخراج على بن الحسين المتغلب على بلاد فارس . ثم شخص على أثر كتابه للمعتز الى كرمان فنزل بم وهى الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل الى عمل فارس فخندق على بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥ وأرسل الى يعقوب يعلمه أنه ان كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرنى بتسليم العمل لانصرف فلم يلتفت يعقوب الى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة فى جمادى الأولى سنة ٢٥٥ انهزم فيها جند شيراز وأسر على بن

الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافرا وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز بالله . ثم عاد بعد ذلك الى كرمان ثم الى سجستان

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فان كورا عظيمة أذعنت لسلطانه وفى سنة ٢٥٩ فى عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقى بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لاقبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن اعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذى كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين اذولاه خراسان وبلاد المشرق

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب الى سامرا وفدا معهم كتاب يذكر فيه ما تناهى اليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك صار اليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار اليه أهلها فدفعوها اليه فدخلها

كان المدبر للدولة فى ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لايقار يعقوب على مافعل وأنه يأمره بالانصراف الى العمل الذى ولاه اياه وأنه لم يكن له أن يفعل مافعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع الى عمله فانه ان فعل ذلك كان من الأولياء والالم يكن له الاما للمخالفين . فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير فى نفس يعقوب ولا فى مركزه القوى لأن المسألة مسألة تنازع فى الحياة ولابقاء للحياة الا بالقوة

وفى سنة ٢٦٠ كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على

طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافرا وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار الى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الأمطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه الا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير الى الامام انصرف بجنده وقد فقد منه فى هذه الواقعة نحو أربعين ألفا وتقرب بما فعل الى سامرا فبعث يخبر به وذكر أنه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ماوراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابا يعلمهم فيه أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لانكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر. وهذا رجوع منهم الى القوة الروحية التى لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيرا بازاء القوة فعادوا الى الحيلة خوفا من أن ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك اقامة له مقام آل طاهر

لما نال يعقوب ماطلب ازداد طمعا وجرأة فأرسل يقول انه لايرضيه ما كتب به اليه دون أن يصير الى باب السلطان ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلى على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمره أنه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه الى حربه ولا سيما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه الى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا الى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر

يعقوب الذى وصل الى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بنى كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولا لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فان كثيرا من الجند اليعقوبى كرهوا القتال اذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجها لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فانه فارق موضعه على تعبئة ومضى . تخلص بسبب ذلك محمد ابن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه على مرتبته وقرئ على الناس كتاب يذكر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ماتفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقا محاربا وكان هذا الكتاب مؤرخا بيوم ١١ رجب سنة ٢٦٢

رجع المعتمد الى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد اليه عمله فخلع عليه فى الرصافة . أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالا من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعى صاحب الزنج الذى لم يكن انتهى أمره بعد

وفى سنة ٢٦٥ توفي يعقوب بن الليث بالاهواز

كان هذا الرجل عصاميا نشأ فى صناعة الصفر ثم مازال يهم بالمعالى فتنقاد له . قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل مافعل ولم يؤخذ عليه فى تدبيره الا هذه الفعلة الأخيرة وهى قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا و بغداد وهو فى جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن أنه يلقى حربا وكان يرى أن كتبه التى يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجئ الا لخدمة أمير المؤمنين

والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة . وكانت مدته ١٨ سنة

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيرا من أخيه في التدبير واحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية الى قوانين المملكة منذ زمان طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس فتفقدها ويأمر بوزن ٣٠٠ درهم باسم عمرو بن الليث فتحمل اليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذى وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها في خفه تكون لمن يخلع خفه . ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل باحضار شيء حرموه رزقه . وفوق ذلك كان يرضى الخليفة وبطانته لما كان يرسله من الأموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة واليا على ما كان يلي أخوه ووجهت اليه بذلك الخلع مع العهد والعقد

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة سنة ٢٧٢ لما كان يبدو له من طموحه الى ما طمح اليه أخوه فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال ولم يزل عمرو في حروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيرا لما كان بيد السامانيين

من بلاد ما وراء النهر فولاه الخليفة اياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجيء

السامانيون

تنسب الأسرة السامانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهى أسرة عريقة المجد فى الأمة الفارسية . كان فى عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد ابن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لذوى البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد فى سمرقند وأحمد بن أسد فى فرغانة ويحيى بن أسد فى الشاس وأشروسنة والياس بن أسد فى هراة — وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضى السيرة لا يأخذ رشوة ولا أحد من أصحابه . ولما توفى استخلف ابنه نصرا على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقى عاملا بها الى آخر أيام الطاهرية . وكان اسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرا فولاه بخارى سنة ٢٦١ وكان بين هذين الاخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء حتى انه فى سنة ٢٧٥ تحارب نصر واسماعيل فقهر نصر وحمل الى أخيه اسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه الى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى

واسماعيل هذا هو الذى على يده انتهى عز عمرو بن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم ١٧٠ سنة وستة أشهر ثم انتهت على أيدى آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم

(١) نصر بن أحمد بن سامان ٢٦١ — ٢٧٩

(٢)	اسمعيل بن أحمد	٢٧٩ ـ ٢٩٥
(٣)	أحمد بن اسمعيل	٢٩٥ ـ ٣٠١
(٤)	نصر بن أحمد	٣٠١ ـ ٣٣١
(٥)	نوح بن نصر	٣٣١ ـ ٣٤٣
(٦)	عبد الملك بن نوح	٣٤٣ ـ ٣٥٠
(٧)	منصور بن نوح	٣٥٠ ـ ٣٦٦
(٨)	نوح بن منصور	٣٦٦ ـ ٣٨٧
(٩)	منصور بن نوح	٣٨٧ ـ ٣٨٩
(١٠)	عبد الملك بن نوح	٣٨٩ ـ ٣٨٩

مما تقدم يفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلا وان كان يدعى لهم ببعضها اسما

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية العلوية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر وسوريا وهى دولة أحمد بن طولون

أحمد بن طولون

كان طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد السامانى الى المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠ فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا سنة ٢٢٠ فربى فى حلبة أولئك الجنود وتفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم

وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفى أبوه طولون فكان بعده فى ضمن جنود بايكباك الذى تقدم ذكره

كانت ولاية مصر مضافة الى بايكباك وهو الذى يختار أميرها ففى سنة ٢٥٤ اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطى كاتب بايكباك

لما توفى المعتز سنة ٢٥٥ وتولى المهتدى وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهرا لأحمد بن طولون فان أحمد كان زوج ابنته فكتب اليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور سنة ٢٥٨ فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر

وفى سنة ٢٦٢ حصل بينه وبين أبى أحمد الموفق تنافر أدى الى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد الى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جوابا فيه بعض الغلظة فسير اليه الموفق جيشا يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام بها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الاموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه مايعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود الى العراق وكفى ابن طولون شره

وفى سنة ٢٦٣ ولى المعتمد أحمد بن طولون طرسوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة

وفى سنة ٢٦٤ دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذى كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعا عظيما حتى كانت حدود مملكته تنتهى الى نهر الفرات

وبذلك تم التغلب والانفراد عن بنى العباس من أقاصى الغرب الى نهر الفرات فضاقت مملكة بنى العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات و بلاد الرى والأهواز

وكان الموفق فى ذلك الوقت مشغولا بحرب الدعى صاحب الزنج فكان فى ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد الى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخلافة الا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية الى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذى أرسل اليه الموفق أن يبذل جهده فى منع المعتمد من المسير الى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل الى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية الى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلف بين الموفق و ابن طولون حتى ان ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق الى المعتمد بلعنه ففعل مكرها لأن هواه كان مع ابن طولون

وفى سنة ٢٧٠ توفى أحمد بن طولون فخلفه فى مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام فى أعقاب ابن طولون الى سنة ٢٩٢ وقد ولى من هذا البيت خمسة أمراء وهم

(١) أحمد بن طولون	٢٥٤ ـ ٢٧٠
(٢) خمارويه بن أحمد	٢٧٠ ـ ٢٨٢
(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ ـ ٢٨٣
(٤) هارون بن خمارويه	٢٨٣ ـ ٢٩٢
(٥) شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢ ـ ٢٩٢

الحوادث الخارجية

ترتب على الاضطراب الذى قصصنا حديثه فى عهد المعتمد أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفا حتى انهم أخذوا سنة ٢٦٣ حصن لؤلؤة الذى كان شجى فى حلوقهم وغلبوا كثيرا من الجيوش ولم تتحسن الأحوال قليلا الا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد اليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة ٢٧٠ .

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيرا من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل

ولاية العهد

كان أبو أحمد الموفق ولى العهد بعد المعتمد وكانت اليه أمور الخلافة فعلا فلما

توفى سنة ٢٧٨ جعل ولى العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبى أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة فى الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدما

صفات المعتمد

لم يكن للمعتمد نفوذ فى ادارة البلاد ولا فى شئ من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطا بأخيه أبى أحمد وكان المعتمد مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى لاهم له الا ذلك وله أحاديث فى الغناء والرقص والندامى وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها الى خوض الغمرات

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم اتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

١٦ – المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة وكان عضدا لأبيه الموفق فى حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩ وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المعتمد على الله لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفى لثمان بقين من

ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ ابريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الله بن محمد الذى توفى سنة ٣٠٠

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن بقرب الانتهاء

ويعاصره فى افريقية وصقلية من الأغالبة ابراهيم بن أحمد بن الأغلب الذى توفى سنة ٢٨٩

وفى مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى سنة ٢٨٢ ثم جيش بن خمارويه المتوفى سنة ٢٨٢ ثم هارون بن خمارويه المتوفى سنة ٢٩٢

وفى زبيد من آل زياد ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد المتوفى سنة ٢٨٩

وفى صنعاء من آل يعفر عبد القادر بن أحمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٩ ثم ابراهيم بن محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٨٥ ثم أسعد بن ابرهيم المخلوع سنة ٢٨٨ ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة

وفى طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوى المقتول سنة ٢٨٧

وفى خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذى أسر سنة ٢٨٧

وفى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى سنة ٩١١ م

وفى فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى سنة ٨٩٨ ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى سنة ٩٢٣

وزراء الدولة

أول وزراء المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب واستمر فى وزارته حتى

مات سنة ٢٨٨ فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهو وزيره

من المهم أن نذكر هنا ملخصا لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابئ في كتابه الموسوم بتحفة الأمراء في أخبار الوزراء لندل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد

قال عن عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد بالله رحمة الله عليه والدنيا منغلقة بالخوارج والاطماع مستحكمة من جميع الجوانب والمواد قاصرة والأموال معدومة وقد استخرج اسمعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين في سنة وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم الى مالا بد منه من النفقات الى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوما وهو في مجلسه من دار المعتضد بالله . ياأبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لى في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فان كنت تعرف وجها تعينني به فأحب أن ترشدني اليه فحسن له اطلاق ابنى الفرات (أبى الحسن على وأبى العباس أحمد ابنى محمد بن موسى بن الفرات) وكانا محبوسين بعد أن صودرا فحسن الوزير للمعتضد اطلاقها والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائى وضمناه أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار وفي كل شهر ستة آلاف دينار وأخذا خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به في المياومة يومهما وفي المشاهرة غدهما

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ماقرره المعتضد بالله

١٠٠٠	دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم
١٠٠٠	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب
١٥٠٠	دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية
٦٠٠	أرزاق المماليك المختارين
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفا من الموسومين بخدمة الدار
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم
٣٠٠	أثمان أنزال الغلمان المماليك
٢٥٣ $\frac{1}{3}$	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك
٤	أرزاق السقائين بالقرب
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
٦٦ $\frac{2}{3}$	ما يصرف فى ثمن الكراع والابل وما يبتاع من الخيل
٦٢٥١	

٦٢٥١	ما قبله
٣٠	أرزاق المطبخين
٣٠	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم
٦ ٢/٣	ثمن الشمع والزيت
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج
٤٤ ١/٣	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين
٢٣ ١/٣	أرزاق المتطببين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح
٦١ ٢/٣	أرزاق الملاحين
٤	ثمن نفط ومشاقة
١٥	صدقة يومية
٣٣ ١/٣	جارى أولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	جارى ولد الوثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء
١٦ ٢/٣	جارى ولد الناصر
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام
٣٣ ١/٣	جارى جمهور بنى هاشم
٣٣ ١/٣	رزق الوزير وابنه
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من فى الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد
٦٨٥١	

٢/٣ ١٦	رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء
١/٣ ٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام
٥٠	نفقات السجون
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق أطبائه وأثمان الادوية
٦٩٤٦	

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التى كانت تصرف فى الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار وفى الشهر ٢١٠٠٠٠ وفى السنة ٢٥٢٠٠٠٠ دينار وهو مقدار قليل اذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة فى عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة فى ذلك فان كثيرا من الاقاليم استقل بادارته وأمواله المتغلبون ومابقى لبنى العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة و بلاد العراق وفارس

اضطرابات الجزيرة

كانت العرب مع تغلب الاتراك على دولة بنى العباس لا يقرون بالخضوع لهم بل كانوا على مالم يزالو عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم فى ديار ربيعة وفى ديار مضر ولاسيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لاتزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس الى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعا وخروجا بنو شيبان من ربيعة

ففى أول خلافة المعتضد صار الى بنى شيبان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا اليهم أموالهم وأغار المعتضد على الاعراب عند السن

فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغرق منهم فى نهر الزاب مثل من قتل ثم سار الى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم الى ماطلبوا وعاد الى بغداد

وفى سنة ٢٨١ سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان بن حمدون الذى تغلب عليها وهو جد الاسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد اليه ترك فى القلعة ابنه وسار عنها فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفى الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد فى الباب وأمر بنقل مافى القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته الى بغداد

وكان مما يهم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان الاهزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين ان أنا جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين احداهما اطلاق أبى وحاجتان أذكرهما بعد مجيئى فأجابه المعتضد الى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم مازال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيرا وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على اخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والاحسان اليه فكان هذا بدء ظهور الاسرة الحمدانية

القرامطة

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع فى سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة

فى قريب من الوقت الذى انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن الجنابى وجنابة من سواحل فارس يدخل اليها فى المراكب فى خليج من البحر الفارسى وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها فى وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقا فنفى عن جنابة فخرج الى البحرين فأقام بها تاجرا وجعل يستميل العرب الى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وماوالاها وقوى أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل كذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التى كتب عليها الشقاء فانه لم يمض على مالاقته من السوء على يد دعى العلويين أكثر من ١٥ سنة فكتب واليها الى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبنى على البصرة سورا ففعل وفى سنة ٢٨٧ أقبل الجنابى بجموعه يريد البصرة فأرسل اليه المعتضد جيشا قائده العباس بن عمرو الغنوى فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما فى العسكر وقتل الاسرى ثم سار الجنابى بعد الواقعة الى هجر وانصرف المنهزمون الى البصرة فلقيهم الاعراب فأفنوهم . أحدث ذلك بالبصرة قلقا واضطرابا حتى هم أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم

أما أمرهم بسواد الكوفة فانه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسل اليهم جيشا يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائى فظفر بهم وأخذ رئيسا لهم يعرف بأبى الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل فقال ياهذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك فلا تسأل عما لايعنيك وسل عما يخصك . فقال ما تقول فيما

يخصنى قال أقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حى فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص اليه ثم مات عمر وجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص اليه ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنهم - فأمر به المعتضد فقتل

كان تتابع الجيوش من المعتضد الى من بسواد الكوفة سببا لأن داعية قرمط زكرويه بن مهرويه سعى فى استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة ٢٩١ ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بابى القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مئة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام وكانت اذ ذاك فى حوزة خمارويه ابن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مرارا فهزموه

هذا ما كان منهم فى حياة. المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدءوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التى آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق الى بيت الله المقدس كما يأتى بيانه

وفى تلك الازمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وافريقيه فكانت الدعوة الاسماعيلية رتبت أن تكون فى آن واحد بجميع الجهات الاسلامية حتى لا يكون لبنى العباس قبل بملافاة شرها وكذلك كان

أمر المشرق

اتسع سلطان عمرو بن الليث فى أول عهد المعتضد ودخل نيسابور سنة ٢٨١ ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانيا وكان رافع قد هرب الى طوس فأرسل اليه عمرو جندا فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم الى خوارزم فتبعوه اليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو الى المعتضد كتابا بذلك مع رأس رافع فأرسلت الى عمرو الخلع ولواء الولاية على الرى وهدايا من قبل المعتضد

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل الى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل اسماعيل بن أحمد السامانى أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل اليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بارسال هدية فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و ١٥٠ دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب و بزاة

كانت هذه الولاية سببا لمصيبة عمرو بن الليث فانه خرج ليحوزها ولم يكن اسمعيل بالذى يسلمها اليه فكتب اليه انك قد وليت دنيا عريضة وانما فى يدى ما وراء النهر وأنا فى ثغر فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر فأبى اجابته الى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة فى عبوره فقال لو أشاء اسكرته ببدر الاموال وعبرته . ولما أيس اسمعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر الى الجانب الغربى وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ اسمعيل عليه النواحى فصار كالمحاصر وندم على مافعل وطلب المحاجزة فأبى اسمعيل

عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هاربا ومر بأجة فى طريقه قيل له انها أقرب فقال لعامة من معه امضوا فى الطريق الواضح ومضى فى نفر يسير فدخل الاجةفوحلت دابتهفوقعتولم يكن له فى نفسه حيلةومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب اسمعيل فأخذوه أسيرا وخيره اسمعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل الى المعتضد فاختار أن يوجه الى المعتضدفحبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمر وفقتل فى أول خلافة المكتفى

لما علم محمد بن زيد بأمر عمروظن ذلك فرصة لأخذ خراسان لأنه فهم أن اسمعيل بن أحمد لايبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستانمريداالاستيلاء على خراسان فلما صار الى جرجان كتب اليهاسمعيل يسأله الرجوع الى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب اسمعيل لحربه قائدا فى جند فلقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيدالى اسمعيل بن أحمد . بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر فى التاريخ

ولما تم ذلك كله عن يد اسمعيل أرسل اليه المعتضد الخلع وبدنة وتاجا وسيفا من ذهب مركبا على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثه آلاف ألف دينار يفرقها فى جيش من جيوش خراسان يوجهه الى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة فى المشرق للاسرة

السامانية فبيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان الى الرى وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام

أمر المغرب

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب اليه كثيرا فأهدى اليه لأول خلافته من العين عشرين حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضة وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقى بفضة و ٣٧ دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة . ثم أراد أن يتقرب الى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندى من على بن المعتضد فقال المعتضد أنا أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومئة هون من ذهب ومنها الف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعدهذا . ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون فى جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع مايحتاج اليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة فكانت فى سيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢

وكان المعتضد اذ ذاك غائبا بالموصل فادخلت للحرم حتى قدم فنقلت اليه فى رابع ربيع الثانى ونودى فى جانبى بغداد ألا يعبر أحد فى دجلة يوم الاحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التى تلى الشط ومد على الشوارع النافذة الى دجلة شراع ووكل بحافتى دجلة من يمنع الناس أن يظهروا فى دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بازاء دار صاعد التى كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت اليها حتى وصلت الى دار المعتضد

كان خمارويه يلى مصر واليه طرسوس والشام فكانت اليه المحافظة على ثغر طرسوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام . لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه سنة ٢٨٣ ولم يكن عند ولده جيش من القدرة مايسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فاكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سببا لخروج طرسوس من أيدى بنى طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولى عليهم واليا من قبله ففعل

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل الى بيت المال ببغداد كل سنة ٤٥٠ .. . دينار ووجهت الخلع والعقد الى هارون . ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد فى مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين

بالخلاف الذي وقع بينهم

صفات المعتضد

كان المعتضد قوى القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة فى عهده أكثر مما كان فى عهد أبيه من الهيبة وان كان الأمر فى الحقيقة جل أن يصلح لأن وراءهم عدوا لاينام يريد افساد ملكهم بما أمكنه ولو أدى ذلك الى افساد البلاد كلها . وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكا للدماء شديد الرغبة فى التمثيل بمن يقتله

وله اصلاحات داخلية جليلة منها أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الارحام وأمر بابطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء . ومنها اهتمامه بكرى دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخرا كان يمنع الماء

ومن أهم اصلاحه مايعرف بالتقويم المعتضدى وانا قائلون كلمة فى شرحه

معلوم أن دين الاسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وحج البيت فى ذى الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التى تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوما وربعا الا قليلا . ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لأن جباية الخراج انما تكون عند ادراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج فى يوم النيروز

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية ٣٦٠ يوما كل شهر ثلاثون يوما كاملة

وكانوا يضيفون اليها خمسة أيام بين آبان ماه وآذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم فى كل ١٢٠ سنة من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فالحقوا الشهر التام بها في كل ١١٦ سنة وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهرا كاملا كلما مضت هذه العدة . فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففى عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلى بن يحيى المنجم ان الزرع أخضر بعد ما أدرك وقد استأمرنى عبيد الله بن يحيى فى استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج فى النيروز والزرع لم يدرك بعد فقال له على ليس يجرى الامر اليوم على ما كان يجرى عليه أيام الفرس ولا النيروز فى هذه الايام فى وقته الذى كان فى أيامها لأنها كانت تكبس فى كل ١٢٠ سنة شهرا وكان النيروز اذا تقدم شهرا وصار فى خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار فى خمس من ايار وأسقطت شهرا وردته الى خمس من حزيران فكان لايتجاوز هذا فلما تقلد خالد القسرى العراق وحضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدما شديدا حتى صار يقع فى نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل فاعمل لهذا عملا ترد النيروز فيه الى وقته الذى كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب سنة ٢٤٣ ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل . فلما ولى المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالأمر وحسب المدة التى تقدمها تاريخ النيروز بسبب اهمال الكبس فوجد أنه تأخر ستين يوما فاخر النيروز بقدره فكان فى ١١

حزيران فجعله كذلك دائما لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر . قال البيرونى فى كتابه الآثار الباقية وهذا وان دقق فى تحصيله فلم يعد به النيروز الى ما كان عليه عند الكبس فى دولة الفرس وذلك أن اهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقريب من سبعين سنة لأنهم كانوا كبسوا السنة فى زمان يزدجرد بن سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة له وكانت النوبة لا بان ماه كما سنذكر والشهر الآخر المستأنف ليكون مفروغا منه الى مدة طويلة فاذا أسقط من السنين التى بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار ١٢٠ سنة بقى بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فان تواريخ الفرس مضطربة جدا ويكون حصة هذه السبعين سنة من الارباع قريبا من ١٧ يوما فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر ٧٧ يوما لا ٦٠ حتى يكون النوروز فى ٢٨ حزيران ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس فى الكبس كانت شبيهة بالتى يسلكها الروم فيه فحسب الايام من لدن زوال ملكهم والامر فيه على خلاف ذلك اه

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فانهم لما رأوا بالحساب أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوى بالتقريب ٣٣ سنة هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت ٣٢ سنة ففي سنة ٢٤١ الخراجية نسب الخراج الى سنة ٢٤٢ الهلالية وأسقطت سنة ٢٤١ لأن الغلة انما أدركت سنة ٢٤٩ ولنضرب لذلك مثلا يفهم به ماكانوا يعملونه كان أول المحرم سنة ٢٠٤ هو ٤ مايو سنة ٨٢٤

وأول المحرم سنة ٢٤٢ هو ١٠ مايو سنة ٨٥٦ ومن بين هذين ٣٣ سنة قمرية و ٣٢ سنة شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجى سنة ٢٤١ فلكى تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحدا حتى تكون سنة ٢٤٢ ويسقطون من الخراج سنة ٢٤١

وقد كتب المعتضد بذلك كتابا أمر فيه أن تكون جباية الخراج فى العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التى رسمها وانما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال فى مصر كانت على الكبس القبطى وفى الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان

والمعتضد هو الذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن فى الارض كلها أحسن منها ولا أجل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد يعمر بها فقال ابن المعتز

قد أقفرت سرمرا　　وما لشئ دوام
فالنقض يحمل منها　　كأنها آجام
ماتت كما مات فيل　　تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد وبها قبر امامين من أئمة الشيعة وهما على بن محمد والحسن بن على العسكريان وبها السرداب التى تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدى المنتظر

وفاة المعتضد

توفى المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ وكان ولى عهده ابنه المكتفى

١٧ ـ المكتفى

هو على المكتفى بن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد سنة ٢٣٦ و بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهدمنه وذلك فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ ابريل سنة ٩٢٠) ولم يزل خليفة الى أن توفى فى ١٢ ذى العقدة سنة ٢٩٥ (١٣ أغسطس سنة ٨٠٩) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و ١٩ يوما

وتولى فى عهده على بلاد المغرب الاقصى من الادارسة يحيى بن ادريس ابن عمر بن ادريس بن ادريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٢

وفى عهده تولى افريقية من الاغالبة زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الاغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٠

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهو آخر الامراء من هذا البيت

وكان الامير على زبيد من آل زياد زيادبن ابراهيم بن محمد (٢٨٩ ـ ٢٩١) ثم أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم

وكان الامير من آل سامان بالمشرق اسمعيل بن أحمد (٢٧٩ ـ ٢٩٥) ثم أحمد بن اسمعيل (٢٩٥ ـ ٣٠١)

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف وفى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج

وزراء المكتفى

لما استخلف المكتفى أبقى فى الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب فدبر الامور على ما كانت فى زمن المعتضد واستمر فى الوزارة عظيما مهيبا الى أن توفى سنة ٢٩١

فاستوزر المكتفى بعده العباس بن الحسن

الاحوال فى عهده

انتكست البلاد فى عهد المكتفى بعد أن كانت ابتدأت تنتعش فى عهد أبى أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شر كيد حتى يورده المهالك من غير نظر فى ذلك الى ما تقتضيه مصلحة الامة

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدرا غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ فى اقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفى القاسم بن عبيد الله مباعدة فلم يكن من الوزير الا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير اليه ومفارقة بدر ففعلوا ولما رأى ذلك بدر انصرف الى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافه وكل بداره وقبض على جماعة من غلمانه وقواده فحبسوا وأمر بمحو اسمه من التراس والاعلام كلها وكان عليها (أبو النجم مولى المعتضد بالله) وذلك كله حصل باغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة فى القبض على بدر فدعا بأبى عمر محمد ابن يوسف القاضى وأمره بالمضى الى بدر ورفقائه وتطييب نفسه واعطائه الامان من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب اليه القاضى ودفع اليه الامان

فاستقر الامر بينهما على أن بدرا يدخل بغداد سامعا مطيعا وأمر غلمانه أن ينزعوا سلاحهم وأن لا يحاربوا أحـدا وبينما هو يسير فى الحراقة اذا وافاه محمد ابن اسحاق بن كنداج فى شذا فلما قاربه تحول الى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه فى ذلك الحين أحد غلمان السلطان فى طيار فأخـذه من الحراقة حتى صار به الى جزيرة فى الصافية فأخرجه اليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله

وكان بهذا العمل الخزى للقاضى الذى توسط فى أمر لم يكن قادرا على تنفيذه وقد كانت العامة تدرك ما فى الاخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد الشعراء يذم القاضى على فعلته

قل لقاضى مدينة المنصور ... بم أحللت أخذ رأس الامير
بعـد اعطائه المواثيق والعهـــد وعقد الأيمـان فى منشور
أين أيمـانك التى شهد اللـــه على أنهـا يمين فجور
أن كفيك لا تفارق كفيـــه الى أن ترى مليك السرير
ياقليـل الحيـاء يا أكذب الأمـــة ياشاهـدا شـهادة زور
ليس هذا فعـل القضاة ولا يحـــسن أمثاله ولاة الجسور
أى أمر ركبت فى الجمعة الزهـــراء من شـهر خير الشهور
قد مضى من قتلت فى رمضان ... صائـمـا بعـد سجدة التعفير
يابنى يوسف بن يعقوب أضحى ... أهـل بغداد منكم فى غرور
بدد الله شملكم وأرانى ... ذلـكم فى حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا ... دل من بعد منكر ونـكير

أنتم كلكم فداء لأبى حا زم المستقيم كل الأمور

والذى هاج الناس من هذا الأمر أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الاسلام أن يكونو عونا على الغدر وعدم احترام الأيمان .

كانت تلك الحال سببا لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم فى الشام والعراق والبحرين وطريق مكة

لما رأى داعيتهم زكرويه أن أهل السواد لا يغنون عن أنفسهم سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطيئ وتميم وغيرهم الى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على ابلها فارسل زكرويه أولاده اليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا الى على بن أبى طالب فقبلوهم على ذلك ثم دعوهم الى رأى القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ وزعم لهم أن بالسودان والمشرق مئة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمى مولى المعتضد بناحية الرصافة غربى ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا الى أعمال الشام التى كانت فى جوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله طغج بن جف فهزم القرمطى كل جيش وجهه اليه طغج حتى حصره فى مدينة دمشق فانفذ اليه المصريون بدرا الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريبا من دمشق وقتل فى الواقعة يحيى القرمطى ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة

عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بأمرة المؤمنين على منابرها ـ كان ذلك كله فى سنتى ٢٨٩ و ٢٩٠

وكان يكثر القتل فى كل بلد دخلها الا من اتقت شره بصلحه والدخول فى أمره وكان لايترك أحدا حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التى لم يبق بها أحدا سلمية

توالت كتب أهل الشام الى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذى الشامة من القتل والسبي وتخريب البلاد فلم ير بدا من الخروج بنفسه الى الشام فتأهب وسار الى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاغر فى عشرة آلاف فارس فنزل أبو الاغر قريبا من حلب فكبسهم القرمطى فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاغر فدخل حلب فى ألف رجل فتبعه القرمطى الى حلب فحاربه أبو الاغر بمن بقى معه من أهل البلد فرجع عنهم

سار المكتفى حتى نزل الرقة وسير الجيوش اليه وجعل أمرها الى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماه ١٢ ميلا فالتقوا بأصحاب القرمطى فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطى وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون فى البوادى وتبعهم أصحاب السلطان. ولما رأى القرمطى مانزل بجنده حمل أخاله مالا وتقدم اليه أن يلحق بالبوادى الى أن يظهر فى موضع فيسير اليه وركب هو فى ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية حتى انتهى الى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه الى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها أنكر زيه وسئل

عن أمره فجمجم ثم أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصار وا به الى المكتفى وفى ٢٦ محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهرا ثم حمل الى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيرا فأعدموا كلهم ونظفت النواحى الشامية من هذه الفرقة المنكرة الا أن ذلك لم يكن مبيدا للمذهب القرمطى فان والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلا كان معلما للقرآن باحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد فتسمى نصرا ليعمى أمره فدار على أحياء كلب يدعوهم الى رأيه فساعده رجل اسمه مقدام واستغوى له طوائف من أعراب البادية فذهب بهم الى جهات الشام فأغار على مدينتى بصرى وأذرعات فحارب أهلهما ثم أمنهم فلما استسلموا قتلهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يؤم دمشق فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع فى دمشق لدفاع أهلها عنها . ولما علم الخليفة بفعله أنفذ اليه الحسين بن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين في برية السماوة وهم ينتقلون من ماء الى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم . أما هم فأسروا الى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها الى البرية فأرسل اليهم الخليفة محمد بن اسحق فى جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش اليهم عمدوا الى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه الى السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فانحازوا الى البادية

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل اليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من سنة ٢٩٣ فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد وعددهم نحو ٨٠٠ رجل فأوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس الى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصاف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطة بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعته فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما فى معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا الى زكرويه فاستخرجوه من مخباه فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد ولا يبرزونه والقاسم يتولى الأمور دونه ويمضيها وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء

ومن أخبث ما فعلوه فى سنة ٢٩٤ أنهم أغاروا على قوافل الحج الآيبة من مكة الى المشرق خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الأموال شيئا عظيما وورد خبر ذلك الى بغداد فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر وندب اليهم جيشا عظيما ذهب اليهم فى جادّة مكة وقاتلهم فقتل منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على ما فى معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم

ولنذكرهنا نص كتابين أحدهما من ذى الشامة الى عامل من عماله والثانى

من عامل الى ذى الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم فى دعاويهم التى بها يستحلون سفك دماء الناس والسعى فى الارض بالفساد

الكتاب الأول — من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله الداعى الى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وامام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين كثيرا الى جعفر بن حميد الكردى سلام عليك فأنى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو وأسأله أن يصلى على جدى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فقد انتهى الينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعيث والفساد فى الارض فأعظمنا ذلك ورأينا أن ننفذ الى ما هناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون فى الارض فسادا وأنفذنا عطيرا داعيتنا وجماعة من المؤمنين الى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن فى أثرهم وقد أوعزنا اليهم فى المصير الى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجرينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم فينبغى أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق بالله و بنصره الذى لم يزل يعودناه فى كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الايمان وتبادر الينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئا من أمرها ان شاء الله سبحانك اللهم

وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على جدى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا

الكتاب الثانى — بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الامام المهدى المنصور بالله - ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه الى عامله - ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقائى سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد فى احسانه اليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يعلمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده الى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بنى القصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والايقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرنى أدام الله عزه عند نظرى فى كتابه بالنهوض فى كل من قدرت عليه من أصحابى وعشائرى للقائهم ومكاتفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمد كل مايومون اليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل الى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفا من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد فى درجة الكتاب الذى اقتصصت ما فيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تهيأ من أصحابى وعشيرتى والنهوض الى ماقبله ويحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة فى زهاء ألف رجل مابين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه

الى جميع أصحابه ووجهت الى جميع أصحابي فجمعناهم الينا ووجهنا العيون الى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هـذا الحادث ونزول هذا المارق فى هـذه الناحية واشرافه على بلدنا لما تأخرت فى جماعة أصحابي عن النهوض الى مدينة أفامية لتكون يدى مع أيدى القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وأعلمت سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب فى تخلفى عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم ان أمرنى أدام الله عزه بالنفوذ الى أفامية كان نفوذى برأيه وامتثلت ما يأمرنى به ان شاء الله أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهناه كرامته وألبسه عفوه وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وعلى أهـل بيته الطاهرين الاخيار

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتـل أكثر دعاتهم ولـكن قد بقى ذنب الأفعى وهو الجنابى بالبحرين ولم يكن له فى عهد المـكتفى كبير عمل وانما كانت مصائبه ورزاياه فى عهد المقتدر وسنبين ذلك فى حينه

خبر المشرق

انتظمت بلاد خراسان وماوراء النهر لاسماعيل بن أحمد السامانى وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ماهو عليه والمـكتفى راض عنه حتى توفى سنة ٢٩٥ فولى بعده ابنه أحمد بن اسمعيل وعقد له المـكتفى بيده لواء وأرسله اليه

خبر المغرب

وفى عهد المكتفى انقرضت دولتان احداهما دولة بنى طولون بمصر على يدى العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ والثانية دولة الأغالبة بأفريقية انتهت على أيدى أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب

العلاقات مع الروم

كانت العلاقات فى أول الأمر حسنه مع ملك الروم حتى انه تبودلت الهدايا بين الملكين

وفى سنة ٢٩٠ وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفى المفاداة بمن فى أيدى المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا فأجيبوا الى طلبهم ولم يتم هذا الفداء الا سنة ٢٩٣ فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو ١٢٠٠ وكان المتولى للفداء أمير الثغور رسم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة

ففى سنة ٢٩١ سار جيش اسلامى من طرسوس وصمد نحو أنطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهى من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل فى فتحها نحو ٥٠٠٠ من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركبا فحملت فيها الغنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغور رستم مرتين وبلغ فى غزاته الثانية سلندوا ففتحها وصار الى آلس فأسر من الروم عددا كبيرا وغزا ابن كيغلغ من طرسوس

وفى سنة ٢٩٤ استأمن الى السلطان بطريق اسمه أندرونقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحوا من مئتى نفس من

المسلمين كانوا أسرى فى حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى فى حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه اليه للقبض عليه ليلا وقتلوا ممن معه خلقا كثيرا وغنموا مافى معسكرهم . وكان رستم قد خرج فى أهل الثغور فى جمادى الأولى قاصدا أندرونقس ليتخلصه فوافى رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين اليهم فانصرفوا ووجه أندرونقس ابنه الى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا فى الحصن فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار اليهم منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه الى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا الى طرسوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع أندرونقس من النصارى وقدوصل هذا البطريق الى بغداد فأكرم

وحصل فى آخر عهد المكتفى مفاداة ثانية تمت سنة ٢٩٥ وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس

وفاة المكتفى

توفى المكتفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥



١٨ – المقتدر

هو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل وهو أخو المكتفى وأمه أم ولد اسمها شغب ولد سنة ٢٨٢ وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة الى أن قتل فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته ٢٤ سنة و١١ شهرا و١٦ يوما

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الله بن محمد الى سنة ٣٠٠ ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس

ويعاصره بأفريقية عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ – ٣٢٢)

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الاسكندر بن بسيل (٩١١ – ٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأرمنى الذى اغتصب الملك سنة ٩١٩ ولم يبق لقسطنطين الا الاسم وشارك رومانس فى الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك ٢٥ سنة الى سنة ٩٤٤ فأغرى قسطنطين السابع ابنى رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه فى دير حيث مات سنة ٩٤٨ وعاد قسطنطين السابع الى ملكه سنة ٩٤٥ مستبدا به الى سنة ٩٥٩ حيث مات مسموما على ما يقال

ويعاصره فى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم وبرت الاول (٩٢٢ - ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ - ٩٦٢)

ويعاصره فى خراسان وما وراء النهر أحمد بن اسماعيل بن أحمد السامانى

كيف انتخب

لما ثقل المكتفى كان فى منصب الوزارة العباس بن الحسن ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولى أحدا العهد فى صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره اذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات وأبو الحسن على بن عيسى فاستشار الوزير يوما محمد بن داود ابن الجراح فى ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال هذا شىء ما جرت به عادتى أن أشير فيه وانما أشاور فى العمال لا فى الخلفاء فغضب الوزير وقال هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال ان كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعنى ابن المعتز لاشتهار خبره فقال لا أقنع الا أن تمحضنى النصيحة فقال ابن الفرات فليتق الله الوزير ولاينصب الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير

صدقت ونصحت فبمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال ويحك هو صبى قال ابن الفرات الا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج الينا . فمالت نفس الوزير الى مشورة ابن الفرات وانضاف الى ذلك وصية المكتفى فانه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفى اختار الوزير جعفرا للخلافة بالاتفاق مع صافى الحرمى ولقب المقتدر بالله وسنه اذ ذاك ثلاث عشرة سنة

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم فى ذلك فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضى ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف بن صوارتكين ثم ان الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحا مع المقتدر وأنه على مايحب فقام عليه الآخرون فقتلوه قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف فى ٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦ وفى غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبى الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك الى العمال ووجه الى المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الامهال الى الليل . ولم يكن بقى مع المقتدر من القواد الا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار . فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض لا نسلم الخلافة من غير أن نبلى عذرا ونجتهد فى دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن